آسفة.. أرفض أن تكوني أمي

نجلاء صبري

الكتاب : آسفة.. أرفض أن تكوني أمي (ثقافة نفسية)

المؤلف : نجلاء صبري

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٨٢٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 54 - 8

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : محمود ناجيه

سلسلة

الثقافة النفسية للأسرة

آسفة.. أرفض أن تكوني أمي

نجلاء صبري



- آسفة أرفض أن تكوني أمي

قالتها "رضوى" بصوت جهور، نعم أرفض أن تكون تلك المرأة أمي، أنا أمقتها، أكرهها بكل ما أُوتيتُ من مشاعر، لا مكان للحب بقلبي تجاهها... هل تعلمين: "أنا أتمنى موتها، ليتها ترحل وتتركني أنعم بحياتي"!.

للوهلة الأولى خيل لي أنها تهذي، وأن تلك القذائف التي تخرج من فمها تجاه والدتها محض توهم لا أكثر، فهدأت من روعها وطالبتها بالصمت قليلاً، فمن الواضح أنها انفعالية لأقصى مدى،كما أن المشكلة أسرية إذن لن تخلو من التحامل، فلم يمر على دخولها غرفة الاستشارة النفسية سوى لحظات مصحوبة بتلك القذائف اللغوية.

هنا لابد من الصمت للحظات، فمثل تلك الحالات تكون على درجة عالية من الاستثارة، مما قد يعرض الجلسة للعشوائية وعدم الضبط... كان طلبي مثيرًا لحيرتها، فهي تعتقد أنه بمجرد دخولها العيادة النفسية ستبدأ بالصراخ، ومن ثم ستتمدد على "الشيزلونج" لتواصل الصراخ، ويجلس من وراء رأسها أو قبالتها طبيب أو طبيبة يضع الكاسيت الصغير؛ أو على أقل تقدير سيكون بيديه ورقة وقلم ويبدأ بتسجيل ملاحظاته عنها.

تعتقد أنها ستنال كل حريتها في الإفصاح دون قيد أو شرط.

ولكي تكون الممارسة النفسية صحيحة يجب أن أعطيها مساحة من الحيرة لتخرج مشكلتها مرتبة وأساسية؛ دون تضخيم أو تهويل أو تحامل، وإن كان الأمر لن يخلو بتاتًا من هذه الاحتمالات، فكل منا يرى مشكلته على أنها أكثر المشاكل صعوبة في العالم، وأن لا أحد يستطيع فهمه، فما بالك بابنة الواحدة والعشرين.

هنا بدأت رضوى تتابعني بعينيها وتضرب المكتب كل لحظة وأخرى بكفيها معلنة عن غضب، أو ربما لتوصل إليّ رسالة أن أنتبه وإلا ستكون العواقب وخيمة، أنفاسها تعلو وتهبط، وبدأت تتململ في جلستها..

آثرتُ أن أطيل فترة الصمت كي تخرج من حيز محاولتها لفرض السيطرة على الجلسة، وتعلم أن كلَّ إدعاءاتها بالنسبة إليّ باطلة، وأن طريقتها في فرض السيطرة هي طريقة قديمة وغير مؤثرة، فالعدوان المفتعل وملامحه الهشة لن تنطلي على المرشد النفسي، وإن كان الأمر يستدعي الاحتياط في بعض الحالات النفسية الأخرى.

بعد برهة من الوقت سألتني: "هتتكلمى معايا ولا أقوم أمشي ؟!"

أجبتها بأن باب الغرفة مفتوح، وأن أحدًا لن يمسك بها لتجلس وتسرد، كما أنني لم أطلب منها أن تزورني ولكنها من جاءت بكامل رغبتها، وعليها أن تتعلم كيف تحترم رغبة الآخر أمامها، فلم يحين الوقت لأتكلم معها بعد.. والتزمتُ الصمت وهي تسأل وأنا لا أجيب.

بعد فترة من هذا الصمت توجهتُ بنظري إليها بعدما لاحظت هدوءها وانتظام أنفاسها وثباتها في مكانها، وراحت تختلس نظرات خاطفة لي وتتأمل المكتب، وتلمس شفتيها وذقنها من آنٍ لآخر.. إذن فهي الآن مهيأة لأن تسرد بهدوء، وستأتي أفكارها مترابطة بعيدة تمامًا عن تداعى الانفعال، فأنا ألجأ من آنٍ لآخر لنوع من العلاج الخاص بي أسميه "العلاج بالإهمال".

بعد لحظات أخرى من الصمت قلتُ لها: ما الأمر يا رضوى؟! لماذا أنتِ غاضبة هكذا؟..

قالت: أمي لا تفهمني بتاتًا، أتمنى موتها صدقيني.

طالبتها بالهدوء، وأن تبدأ أولاً في سرد معلوماتها الشخصية كالاسم والسن والمؤهل الدراسي ومعلومات الوالدين وعدد الإخوة وترتيبها بينهم، وبعض البيانات الأساسية الخاصة باستمارة دراسة الحالة، ومن ثم قلتُ لها: احكي.

تساءلتْ: من أين أبدأ؟ فأخبرتها من أي زاوية أو فكرة تريدين..

بالطبع ترك حرية السرد هنا تعطي للمرشد النفسي مقدرة الحكم على أهم تيمة للشخصية ووجعها الأساسي، فالنقطة التي ستسرد منها رضوى المشكلة تكون هي أقوى نقاط الضعف والتأثير في طبيعتها النفسية، وتعبر بصورة مباشرة وأساسية عن درجة حرمانها وآلامها.

قالت رضوى: اسمعي، الأمر بالنسبة إليكِ قد يعد تافهًا، وقد لا تقدرينه وتنظرين إليه بسطحية، ولكن الأمر بالنسبة لي ذو شأن كبير وموجع ومؤلم لأقصى درجة تتخيلينها، كما أن المشكلة بالنسبة إليّ مركبة ومتداخلة وعبارة عن مراحل تترتب لاحقتها على سابقتها، فأرجو أن يتسع صدرك لسماعي، وأرجو ألا تقاطعيني أبدًا، فوالله أنا محملة بالآلام وأريد أن أزيحها عن كاهلي.

فأشرتُ لها بالموافقة بدون أن أنطق.

قالت: أنا أفتقد حضن أمي وبصيرتها، علاقتي بها مضطربة لأقصى مدى، دائمًا تتهمني بالقصور في الشخصية وتراني إنسانة تافهة، ولا تعترف بأي إنجازات شخصية أحققها...

هل تعلمين: حينما حصّلت مجموعًا عاليًا في الثانويـــة العامة يسمح لي بدخول إحدى كليات القمة؛ اعتبرت ذلك معجزة من السماء، برغم أنني متفوقة في دراستي منذ أمد بعيد، ولكنها لا تعترف بذلك مطلقًا.

لم أحظ بطفولة طبيعية مثل رفيقاتي، كانت تمنعني مـــن اللعب بحجة أن الاختلاط مضرة للطفل، وبأن كل الناس سيئون، وأنها تخشي عليّ من الأمراض ومـــن تـــداول الألفاظ السيئة مع الصغار.. كلما ذهبت إليها لتحتضنني كانت تبعدني بذراعيها وتقول لي: " بطلي دلع، انتـــي كبيرة على الكلام ده"..

ما أسرده لكِ، وأنا لم أدخل لمرحلة المدرسة بعد.

لم أشعر يومًا حتى بعينيها ترسل لـــي رســـالة محبـــة، صدقيني عين الأهل ضرورية جدًا للأطفال، فنحن نلتقط منها إشارات القبول والرضا، وأيضًا إشارات الرفض.. قالتها رضوى بألم لم أعهده: " آآآآه لو يـــدرك الآبـــاء أهمية عيونهم، آآآه لو يفهمون كم نحتاج أن ننظر لتلك المرآة الناصعة فنجد فيها ملامح القبول والحـــب التـــي بداخلنا تجاههم، ليتها حتى تعكس مشاعرنا نحن لترتسم على عيونهم، فربما يشعرون".

طوال فترة طفولتي وأنا وحيدة، لا رفيق لي ولا إخـــوة حتى، لم يكن هناك سوى أمي وأبـــي، ولأنــــي شـــديدة الجمال فكنت محل اهتمام من جميع أفراد العائلة، كـــان الجميع يدللني؛ فيما عدا والدتي، فلـــكِ أن تتخيلـــي أن الشيء الذي فعلته أنها منعتنـــي مـــن زيـــارة الجميـــع وحجمت علاقاتي بهم وقالت لوالدي أنهم يعملون علـــى إفسادي وأنهم يعززون ذاتي، وتلك جريمة في نظرهـــا، فأنا قد أصاب بالغرور جراء ذلك.. منعتني من أي مصدر للمحبة وللتعامل مع الآخر.

حتى والدي بحكم عمله وغيابه عن المنزل فترات طويلة لم أشعر بوجوده؛ بالرغم من حنانه المفرط؛ ولكنه كان بجرعات قليلة جدًا بالنسبة لمن تشعر بالحرمان مثلي.. أنا لا أعنفه أو ألومه صدقيني، لكني فقــط أســرد لـــكِ أوجاعي وآلامي.

بسبب وحدتي كنت ألجأ للمذاكرة، فقط المذاكرة ما كانت تملأ عليّ حياتي، وكنت أتخلص بها من العزلة، فأنا أضع فيها كل همي، وربما كانت تلك الميزة الوحيـــدة التـــي فعلتها أمي لي بعزوفها عني، تفوقت في الدراسة وأنـــا في حالة عزلة تامة، فغير مسموح لي أن أكون صداقات، لأن أمي ترى أن المرأة لا تفسدها غير المرأة، وفتيـــات

اليوم كالسيجارة؛ ربما تكون مسلية، ولكنها مضرة بالصحة، فهن أيضًا مضرات بالسلوك، ويجب أن أتجنبهن... لكِ أن تتخيلي، كنت أسمع حكايات الفتيات عن آبائهن وأنا في حالة من الدهشة، لماذا لا أحظى بمثل هذا الحب والاهتمام؟! لماذا كل حياتي محصورة ما بين صفحات الكتاب ووجه أمي المتجهم؟!.

أليس من حقي كفتاة أن أخرج للعالم وأكتشفه، وأن تكون هي مرشدتي الروحية في تلك الرحلة؟! أليس هذا واجب كل أم تجاه أطفالها؛ أن تعلمهم خبرات الحياة التي استقتها هي، وتوفر لهم جو التفاعل مع الحياة بأقل قدر من الخسائر.. لماذا عليّ أن أرضخ فقط لنتائج خبراتها؟ ولا تكون لي خبراتي الخاصة، وأكون وجهات نظري عن تجربة فعلية وليس عن عالم المحاكاة الوهمي الذي أعيشه؟.

منذ أمد طويل لجأتُ لأحلام اليقظة، بدأتُ أختلق الحكايا وأعيشها،فهؤلاء أولاد وبنات الجيران ألعب معهم وأحكي لهم عن قصصي الخيالية، وعن أمير الليل الذي يأتيني يحمل إليّ الهدايا.. وهؤلاء معلماتي يحتضنني بحب عوضًا عن نظرة الشفقة التي يرمقنني بها كلما حاولن التقرب إليّ وأنا أبتعد عنهن؛ كما أخبرتني أمي.

هذه هي أنا الآن على الشاطئ أمرح مثل كل الفتيات وسط آبائهن، هذا ابن خالتي وهذه ابنة عمتي يزورانني، تلك هدية جاءت بها أمي في عيد مولدي، هذا موعد اجتماع العائلة في منزل جدي، أو أو أو... إلخ.
لماذا حرمتني من كل هذا؟!.

تصوري،كانت دائمًا تخبرني أن هنالك شخصًا ما يراقبني ليبلغها بأخباري وتصرفاتي، وكانت دائمًا ما تذكر لي بعض الأحداث البسيطة التي أمرّ بها مما يزيد توجسي وريبتي ويجعلني فعلاً أشعر أنها تراقبني وأنها صادقة.
بتُّ أخاف من كل تصرفاتي، وأشعر في كل وقت أنني مراقبة ومهددة، فلم تكن عينيّ تعرف لونًا غير لون التراب، لم أتجرأ يومًا أن أرفع عينيّ للسماء خشية افتضاح أمري عندها، فلربما اتهمتني أنني أنظر إلى شرفات المنازل، وأن أحدًا ما شغل ناظريّ.

ودائمًا ما تحاصرني بالأسئلة عن كل ما أفعل، إذا رغبتُ في النوم تدخل الغرفة خلفي لتسأل هل ستنامين الآن؟، إذا دخلتُ للمطبخ تعاجلني هل ترغبين في تناول الطعام الآن أم أنكِ تمارسين التسكع؟.. لا أستطيع أن أقرأ شيئًا دون مراجعتها إياه، مكالماتى في الهاتف مراقبة لأقصى درجة تتخيلينها، حتى أنها أحيانًا تعيد طلب الرقم الذي أحدثه؛ إن فاتها رفع السماعة الأخرى!.

كانت دائمًا تحرجني أمام زميلاتي، فهن على دراية بأن هناك من رفع سماعة الهاتف.

لم يكن لي صديقات، فقط زميلات دراسة يتصلن بي في الأمور الطارئة؛ لأنني متفوقة، كانت تورد إليهن شكها فيّ تحت مسمى الرقابة، مما يفقدني الاحترام لديهن.

حياتي كلها محاصرة، بدأت أفقد الثقة في نفسي، فأنا محل انتقاد لا أكثر، ومحل شك لا أكثر.

لم أشعر يومًا أنها على درجة من الوعي لتمنحني الحب والعاطفة، وتكون إلى جواري عوضًا عن وقوفها ضدي.

لا شيء يرضيها أبدًا، دائمًا تتهمني بالغباء، حتى أنني صدقتُ بالفعل أنني غبية، وبدأتُ أتعامل من هذا المنطق، تتهمني بالجنون أيضًا، ولا أدري لذلك سببًا سوى أنني أحيانًا ما أذاكر بصوت مرتفع عندما يستعصي عليّ أمر فأكون في حاجة للتفكير بصوتٍ عالٍ، أو عندما أحفظ درسًا، أو عندما أمارس أحلام اليقظة من فرط وحدتي.. فأجدها تدلف للغرفة بأسلوب مفزع لتقول لي: اخرسي يا مجنونة، صوتك مؤذي وشاذ ولا أطيق سماعه.

لا أعرف كيف أتعامل معها، حاولت مليون مرة أن أفتح معها بابًا للحوار، فإذا بها تلجأ لأسلوب الإسكات ببعض الجمل المقتضبة التي تخبرني ضمنيًا من خلالها أن

أصمت، مثل " ها وبعدين ، إخلصي ، إيه التفكير السطحي ده؟ ، ياللا يا ماما أنا مش فاضية لتفاهة بنات اليــومين دول".. ثم تشيح بوجهها عني.

لم أشعر يومًا بألفة الفتاة ووالدتها، فتجلسنى بجوارهــا جنبًا إلى جنب، وتضم كتفي بيديها وتحتضننى، أو على الأقل تربت على كتفي، فــي فاتحــة للمــودة، أو بــث الطمأنينة، فأسرد لها أوجاعي ومشاكلي، بل كانت تلجأ لأسلوب المخبر في تعاملاتها معي، فــإن حــدث أمــر عرضي بالمدرسة وأتيت لأحكي لها أو أخبرها أن مديرة المدرسة تطلبها؛ كانت تهاجمنى لأتحــول مــن موقــع المطالب للمدافع عن نفسه، فأخشى أن أتحدث إليهــا أو أتقرب منها مرة أخرى.. كانت تستهل حــديثها بــبعض الجمل مثل: "عملتي إيه؟ - يعني هي طلباني كده لله في لله؟ - أكيد وراكي مصيبة"... تلك العبارات كانت تثيــر استيائي، وتجعلني أنغلق على ذاتي أكثر وأكثر.

الأمّر من ذلك أنها كانت تستشيط من حب والدي لــي، وتعنفه على ذلك، وتعتبر أن تدليله لي دربٌ من عيــوب التربية.. أحيانًا ما أشعر أنها كانت تصلح للعمــل فــي السجون أو الشرطة، فهي قاسية القلب متحجرة المشاعر.

عندما بلغتُ؛ اصطدمتُ لأول مرة باللون الأحمر القاني مع آلام شديدة في أسفل البطن، لم أجرؤ أن أخبرها في بادئ الأمر، كنتُ أعتقد أنـــي مريضـــة، وأن المـــرض سيزول، لكني بعد يومين لم أجد بدًا من الحديث؛ فتوجهتُ لأبي قائلة: "بابا أنا شكلى إتعورت، وبجيب دم". فـــزع والدي ولم يفهم، وأخذ يتفحص جسدي، ولم يجد أثـــرًا للدماء فسألني عن مكانها فخجلت، ففهم بدوره، فنـــادى على أمي ليخبرها هامسًا مبتســمًا: يبـــدو أن رضـــوى بلغت. لم أكن أفهم وقتها معنى البلوغ.

نادتني أمي ونهرتني لماذا لم أخبرها، وقالت لي بنبـــرة صوت حادة "الآن أصبحتِ آنســـة، ويجـــب أن تراعـــي تصرفاتك وتكوني على قدر المسؤولية".

لم أفهم معنى كلماتها، آنسة؛ كيف؟ وهل كنتُ من قبـــل ذكرًا مثلاً؟! وعن أي مسؤولية تتحدث؟! هل يصاحب تلك الدماء مسئولية؟!

أجبتها: يا ماما أنا مريضة ويوجد دماء، فقالت لي: كل شهر سوف تمرضين بنفس الصورة في نفس الموعـــد وبنفس عدد الأيام، وستكون لديك نفس الآلام، فيجب أن تتعودي لأن هذا أمر طبيعي. قالت: تلك عادتك الشهرية. ومن ثم صمتت، دون أن تشرح لي معنى العادة الشهرية

وما يترتب عليها من تغيرات فسيولوجية ونفسية لــدى الفتاة.

بمجرد بلوغي بدأت معالم جسدى تتغير بسرعة مفرطة، وأخذت أنوثتي تتشكل،هنا بدأت الطامة الكبرى والمأساة، فلقد زاد الحصار أضعافًا مضاعفة، وبــدأت تكيــل لــي الاتهامات إن اهتممتُ بمظهري، لم أفهم مشكلتها أبدًا.
في تلك الفترة كنتُ على وشك الدخول بالمرحلة الثانوية، فأخذتُ أشعر ببعض التغيرات التي تصاحب نمو جسدي.
أصبحتُ أكتشف أنوثتي وأجد يدي تميل للعبث بالجســد، فشعرتُ أني أغضب الله، فحاولتُ أن أقرأ وأفهم، لأنــي وأنا طفلة كنتُ ألجأ في بعض الأحيان للمس المنــاطق التناسلية، فقرأتُ وعرفتُ أنها تمثل حالة اللعب الجنسي عند الأطفال، وخاصةً إذا حصلت بعمر ٥ – ١٠ سنوات، وهي حالة طبيعية تدخل في باب استكشاف الجسد، كما أنها جزء مهم من النمو النفسي للطفل، فهدأت سريرتي قليلاً.. ولكن هل أكون في مثل هذا العمر وأعود لتلــك المشاعر ولكن بصورة أقوى؟!
حاولتُ أن أقرأ وأفهم فعرفتُ أنها العادة الســرية، وأن جسد الفتاة تتغير هرموناته ويصبح له متطلبات جنسية لا يتم إشباعها إلا بالزواج.

هنا بدأتُ أدرك أن للإنسان شيئًا يُسمى المشاعر والأحاسيس والعاطفة، وبدأتُ ألاحظ نظرات الشباب إليّ، فقد حباني الله كما ذكرت لكِ؛ بنوعٍ من الجمال النادر، وقد ازددتُ جمالاً بعد بلوغي، مما أثار جنون أمي..
لكِ أن تتخيلي أنها كانت تغار مني على أبي، والعكس كذلك.. والله إنها كانت تعاملني كأنني ضرتها بالمنزل، بالطبع هذا الأمر لم يظهر بصورة جلية إلا بعد بلوغي واستدارة مفاتني.

في تلك المرحلة كنتُ أعلم أنني في مواجهة دامية مع أمي، ولا فكاك منها إلا بحالتين: إما الزواج أو الاستقلال عنها بالدراسة، فركزتُ كل جهودي على النجاح في الثانوية العامة بتقدير مرتفع جدًا كي أكون من أوائل الجمهورية وأحظى بمنحه تبادل طلابي.. وبالفعل نجحتُ بمجموع عالي، ولكن للأسف لم أحظ بما كنت أتمنى، ودخلتُ إحدى كليات القمة، وهنا ظهرت مشاكلي كاملة من مجرد مشاعر، لحياة مجسدة على أرض الواقع.
فأنا طيلة دراستي السابقة كنتُ في مدارس منفصلة، لم أعرف يومًا معنى اختلاط الفتيات بالشباب، خرجتُ من صومعة والدتي على مجتمع أكثر إنفتاحًا، الشاب يخالط الفتاة بمنتهى السهولة والعفوية.. شعرتُ للوهلة الأولى

عند دخولي حرم الجامعة أني سيغمى عليّ، وأنني حضرت لعالم آخر لم أسمع عنه، وحتى لم يخطر في بالي.
زاد هذا الأمر من الطين بلة، فعزلتي جعلتني أتقوقع على ذاتي أكثر وأكثر، فوالدتي سامحها الله رسخت بداخلي خوفي من الآخر، وخاصة التعاملات في الفئات الكبيرة، والحديث إلى الآخرين والتعامل معهم، ولكن جمالي بالطبع كان عقبة بطريقي، فلم يتركني أحد سالمة.

بعد فترة من التحاقي بالجامعة بدأتُ أتعرف على زميلات للدراسة، وبالطبع كانت علاقتي بهن لا تتعدى حرم الجامعة، فمن غير المسموح أن تعرف أمي عنهن شيئًا.
هنا بدأت أولى خطواتي نحو التحرر من قيد أمي بنوع من الخصوصية المغلفة بالسرية، وبدأتْ هي تمارس معي عادتها في سرد بعض الأحداث التي أمرُّ بها لتظهر لي أنني لا أزال مراقبة، ولكن خانها التعبير كثيرًا، فانتبهتُ لأنها افتراضات مختلقة لا تمت للحقيقة بصلة.

من هنا بدأت أولى مراحل شعوري بالقدرة على الحرية؛ ولو تحت ستار الكذب..
اندمجتُ قليلا مع زميلاتي، وبدأتُ أتعرف على زملاء من الجنس الآخر.. في البداية كان الأمر بالنسبة لي شديد

الصعوبة، وبعد فترة قليلة لم أعرف كيف انفتحتُ علـــى العالم الآخر بتلك السهولة والسرعة.. سأشبه الأمر لكِ بالجوع، فكأنني كنتُ جوعانة و توفر لي كل ما لذ وطاب من الطعام، فأخذتُ ألتهم بسرعة وهمجية خوفًـــا مـــن الحرمان والجوع مرة أخرى.

بدأت علاقاتي العاطفية يشوبها التشوش وعدم الانضباط وهو ما أدركته لاحقًا في مرحلة متأخرة، ربما لـــنقص الخبرة وعدم وجود من يوجه سلوكي، فلم أكن أعلم ما هو الصواب وما هو الخطأ.. هل اندفاعي فـــي خـــوض الحياة والحوار مع الجميع صحيح، أم أن الحواجز هـــي الأصح؟.. هل قبولي لعروض التنزه صـــحيح أم خطـــأ؟ كنتُ أدرك بفطرة الفتاة أن هذا غير مسموح، فلا عرف ولا دين يسمح بهذا النوع من الانفلات، شـــعرتُ أننـــي ربما أتجاوز كثيرًا، أو أعيش في إطار تربية غير تربيتي ولكني بالفعل كنت أشعر كأنني مغيبة، تفاعل الآخـــرين معي والتفافهم حولي ومدحهم لجمالي كان يجلـــب لـــي سعادة لا توصف، وخاصة عندما يتكلمـــون عـــن حـــدة ذكائي، كنتُ أشعر بـــ" الآدمية"، ودائمًا ما كنتُ أقارن بين نظرة الخارج لي ونظرة المنزل.. بين تقـــدير الآخـــرين وتحقير أمي.

ولا أخفيكِ أن نوبات الحزن والبكاء كثيرًا ما اجتــاحتني بسبب هذا الأمر، فأنا في الخارج ملكة متوجة، ترتــدي ثوب العبودية والقهر حال وصولها عتبة البيت..
كان هذا الأمر يقتلني، فكيف لا تشعرين يا أمي بقيمتــي مثل الآخرين، وكيف لا تجعليني أشعر بها بدوري.

مع الوقت كان انتمائي للخارج يزداد، وهوة ابتعادي عن العائلة تتسع، وأمي تمارس ضغوطها المحمومة وأنــا أتظاهر بالبراءة التي كنتُ عليها من قبل.. ولكن للحــق كنتُ ذئبًا في ثوب حمل وديع.

إلى أن جاء يوم وظهر هو في حياتي.. كــان ظهــوره معجزةً من السماء، جلب معه كل المشــاعر الغامضــة اللذيذة، أحاطني بالاحتواء والود، شعرتُ وكأنه التعويض عن كل سنوات العذاب والحرمان فــي بيــت العائلــة.. تماديتُ في علاقتي به، ربما ما أثار إعجابي به شخصيته القوية، فلقد اجتاحني بغرابة شديدة.. أقسم لكِ أنه أعاد تشكيلي، كان أعظم آثاره عليّ في قدرته علــى تغييــر طريقة ارتدائي لملابسي، فلقد وضعني في حالة حيــرة وصراع بين ما تربيت عليه من التزام وتزمت، وبين ما أراه من أزياء وموضة، وبين ما يريده هو.. وضــعني فيها بدون قصد منه ولا وعي مني.

وقتها وجدتُ نفسي متخبطة، ولأنني لا أعلم كيف أوافقه وكيف أرضيه؛ بدأتُ أتمثل بالواقع المحيط حولي، بدأتُ حالة محاكاة عمياء، لم أكن أعلم في قرارة نفسي؛ هل تناسبني تلك الملابس أم لا، أنا فقط أتابع عينيه وأرصد نظراته وأتمثل بما تقع عليه، فإذا نظر لفتاة ترتدي زيًا كاشفا أرتدي مثلها، في حين أنه ربما من وجهة نظرك كان عليّ أن أنتقدها.

بدأ كل من حولي يلفتون انتباهي للتغير الجذري الذي طرأ عليّ، وأنا في حالة حيرة وصمت وعدم فهم ولا وعي لما يقصدون، فلقد انسقتُ للأمر كي أرضيه.
أصبح الجميع يلّمح لانفلاتي، حتى هو نفسه أوضح لي أكثر من مرة أن ملابسي لا تناسبني، وأنني أخرج عن المألوف، وعليّ أن أراعي المجتمع. وقتها شعرتُ بجرحٍ غائر لأنوثتي؛ كيف أفعل كل هذا من أجلك ثم تأتي وتشعرني كأنني حثالة وعاهرة؟.
وقتها حدثتُ نفسي قائلةً: يا رضوى، من ينفق وقته في تقييم الناس لن يجد وقتًا آخر ليحبهم، فعليكِ الاختيار بين توجيه النقد والتقييم وبين الحب.. فاخترتُ أن أحبه.

في تلك الفترة أصبحت أمي أيضًا تنهرني على ملابسي بشدة، وأصبحت كل تصرفاتي غير طبيعية من وجهة

نظرها، وحتى والدي.
بدأتُ أهتم بمظهري أكثر وأكثر، وتماديتُ فأصبحتْ ملابسي أكثر تعبيرًا عن صرخة الأنثى، وكأنني لا أعلنها لحبيبي فقط، ولكن أعلنها لرجال العالم أجمع قائلة: يا رجال العالم انتبهوا؛ أنا هنا أنثى صارخة أنشدُ الاهتمام، ولا يكفيني حتى من اختاره القلب؛ ربما أحبه ولكن بالتأكيد بداخلي جوع عاطفي شديد، ربما يكفيني بصورة سطحية؛ لكن من داخلي يفور حرماني وينشد مزيدًا من الاهتمام، وها أنا أعلن ذلك في ملابسي الفاضحة.

أصاب الجنون أمي، وأصبح المنزل ساحة صراع دائم بيننا، فلم أعد أنا الطفلة المقهورة على ذاتها، المطيعة لوالدتها؛ التي تلبي كل رغباتها بدون مناقشة أو شرط.
وانتقل الصراع ليصل بيوت العائلة، الكل يحكي عن رضوى وكيف انفلتت أخلاقها، وبعدما كنتُ مثالاً للتفوق والبعد عن الشبهات؛ أصبحتُ أخوض فيها ليل نهار، وأنا شاهرة قدرتي على الاختيار والمواجهة في وجه أمي، كان الجميع يعتبرون ما أمر به نوعًا من التمرد ليس إلا، وأني لا أملك الحق في توجيه دفة حياتي.

في تلك المرحلة انسقتُ لما قد أسميه أزمة الهوية، كنتُ أريد الشعور بنفسي أكثر وأكثر، كنتُ ألهث من أجل الفردية والانفصال عن العائلة وإثبات الذات في كافة مجالات الحياة، كنتُ أفكر لماذا لا أخرج عن إرادة أمي وسيطرتها، لماذا لا أجابهها بكل ما أوتيتُ من ذكاء؟.

كان الأمل في غدٍ أفضل هو ما يسيطر على فكري آنذاك، قلتُ لنفسي: أفقر الناس من ليس لديه أمل، لذا يجب أن أتحلى به وأسعى لتحقيقه، فكانت دراستي هي شاغلي الأوحد، كانت هي هدفي الأسمى، فليست الأهداف ضرورية لتحفيزنا فحسب، بل هي أساسية فعلاً لبقائنا على قيد الحياة.. هكذا حدثت نفسي وهكذا وجهت دفتي. فكان الحب والدراسة ما يشغلاني في تلك المرحلة.

ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فكأن همتي تلك كانت كرغوة الصابون، تفور وتفور وتكون فقاعات عالية ولا تلبث أن تخمد وتعود لتثور مرات وتخمد مرات مع أقل احتكاك بالماء والكفين.

فبعد فترة من علاقتي بحبيبي انفصلنا؛ فقط لأنني لم أرضخ له فيما كان يطلبه مني، فبعد فترة من ارتباطنا لاحظت أنه سيكون صورة من أمي في تحفظه ومطالبته لي باختيار أصدقاء معينين، وحصاره لأفكاري وملابسي،

وطريقتي في التعبير، فلفظته وابتعدت عنه.. هنا كـــان الأمر محيرًا جدًا بالنسبة ليّ، كيف أحبه وكيف أبتعد عنه وأنساه بتلك السهولة لمجرد محاولته فرض الســـيطرة عليّ؟ هل كان حبي له وهمًا، أم أنني اعتبرته نوعًا من أنواع المقبلات التي تثري طعم حياتي الحالية؟

تنقلتُ من علاقة لعلاقة، وساءت سمعتي.. وقتها أرجعت الأمر لأزمة الهوية... ألم يكن حريًـــا بـــأمي أن تكـــون صديقتي عوضًا عن كونها ندًا لي، ربما كانت نجحت في استمالة قلبي وحمايتي من التخبط في بحـــر المشـــاعر المتناقضة المصاحب لتلك الفترة.

استمرت حالتي تلك لفترة طويلة من الوقـــت، وتعرفـــت على شاب آخر وجدته على مستوى عالٍ مـــن الثقافـــة فانبهرت به، أحسست وكأنني أتعلم من كل فرد ألتقيـــه، أتعلم فن الحياة أقصد، ألتقط من كل فرد أقابلـــه خبـــرة جديدة وتجربة تثري حياتي، فيومًا ما تعلمت من قراءاتي " أن بعضنا كالحبر وبعضنا كالورق، فلولا سواد بعضـــنا لكان البياض أصم، و لولا بياض بعضنا لكـــان الســـواد أعمى".. هكذا كان خيالي يصور لي، كنت أحكـــم علـــى جميع البشر بنوع من السطحية فلم تختبرني الحياة في

معتركاتها بعد، كنت أعامل الجميع باعتبارهم صـــادقين، وأفترض الأمانة فيهم، وكانت تلك مصيبة كبرى بالطبع، ظهرت سلبياتها بصورة سريعة فيما بعد.

كنتُ ألتقي هذا الشاب خارج الجامعة في أماكن عامـــة، وبرغم أننا لم نكن نتحدث في شـــيء خـــارج الحـــدود، فوجئت ببعض مقاطع البلوتوث التي توحي بأننا علـــى علاقة حميمة ربما، وتسيء إلى سمعتي، فقد كان يتعمد أن يلمس كفيّ مثلاً أو كتفي لمسات عابرة، وكان يعتذر سريعًا ويُرجع الأمر للعفوية وأنه يحب أن يمزح باليدين، وكنتُ أصدق، في حين أن هنالك آخر يلـــتقط لنـــا تلـــك المقاطع ويعدها لتكون مصدر مرح وتفاخر بين زملائنا الشباب والفتيات على السواء..
حينما انكشف الأمر لي ووصلتني تلك المقـــاطع علـــى هاتفي الخاص؛ كدتُ أُجّن، وكانت صدمتي كبيرة جدًا فيه ولم أصدقه برغم مبرراته.

كذلك تعرضت لصدمة في صديقة مقربة جـــدًا، عنـــدما اكتشفت أنها تفشي أسراري وتبوح بهـــا، وأنـــا التـــي اخترتها ولم يكن لي صديقات طوال حيـــاتي. فـــاهتزت ثقتي بالجميع، ولكنني تذكرت مقولة لأحد الحكماء قـــال

فيها: (وقفتُ يومًا أمام حقول القمح، فاسترعى نظـــري سنابل تطاولت في خيلاء، وسنابل أحنـــت رأســـها فـــي تواضع وحياءٍ، ولكم عجبت حين تلمســـتها، إذ رأيـــت الأولى فارغة، ورأيت الثانية ملأى بحبات القمح، فقلتُ: كم في الحياة من سنابل رفيعة الرأس فارغة). حينئذٍ لم أعير الحادثة أهمية، وشبهت مـــن خـــذلوني بالســـنابل الفارغة.

في تلك المرحلة بدأتُ أختلق رفيقة لذاتي مني.. ربمـــا يخيل لكِ أنني مصابة بالسكيزوفرينيا، ولكن الأمر ليس كذلك، أنا فقط إثر تلك المواقف الضاغطة وحرماني ممن يحتويني ويحاورني كان يجب عليّ أن أتكيف وأن أختلق كيانًا يحاورني، وأنا أعلم في قرارة ذاتي أنه مجرد خيال ولم أدعي يومًا أنه حقيقة، أو أنني مصابة بالضلالات، فلا أخبر أحدًا أني أرى شيئًا أو أسمع أصواتًا، فقـــط كنـــت أحتاج لمن يردد معي أفكاري ويسمعها، لمـــن يـــوهبني الحكمة وحسن الإصغاء، كان سعيّ ثمينًا جدًا وســـاميًا، فلجأتُ إلى ذاتي عوضًا عن لجـــوئي للآخـــرين الـــذين خذلوني سابقًا... كان لتلك المرحلة عظيم الأثـــر نحـــو تخصصي الدراسي فيما بعد.

وقتها زادت فجوتي مع أمي ومع الحياة، وبدأت تتسع رويدًا رويدا، ولأني كنت صغيرة، وشعرت بالضعف والإهانة؛ وكأنني أغرق، حاولتُ أن أبحث عن يدٍ تنتشلني وتلفتُ حولي فلم أجد سوى زميلات وزملاء كاذبين ومنافقين، وأم متسلطة، وأب لا يعرف من الحياة سوى جمع المال والأمر والنهي بدوره، فقد كان والدي أيضًا بين الحين والآخر يظهر لي مشاعر توحي بأنه أناني لا يفكر إلا في ذاته؛ برغم مشاعر الحب التي كان يهبني إياها حينما يتيسر الوقت، فكنت أتعجب حين يمنّ عليّ بتربيته، وكأنه ليس واجبًا عليه، فقد كان يعشق أن ينسب إلي نفسه إنجازي، وكأنه أنجبني هو الآخر ليمارس عليّ عقدة عظمته.

بدأ الجو حولي يمتلأ بالتشوش، تشتتْ قلبي فآثرتُ أن أغلقه بتلك المرحلة من عمري، وأن ألتفت لدراستي، ولم أقطع علاقاتي بزملائي حين ذاك،فقد اعتبرت أن تواصلي معهم هو نوع من استمرارية الحياة، ولكني لجأت للتوحد مع السرّ، فامتثلتُ لقول الأعرابي:

إذا المرء أفشى سره بلسانه
ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

وبرغم ذلك فضلت عدم التقوقع، بل عاملتُ الناس جميعًا من منظور التفاعل الاجتماعي لا أكثر، وتذكرت مقولة إن الاتصال في العلاقات الإنسانية يتشابه بالتنفس للإنسان، كلاهما يهدف إلى استمرار الحياة.

وقتها كان حنيني لأمي يزيد، كنتُ آتيها لأعبث بخصلات شعرها وهي نائمة، فتفيق وتنهرني، ولأنها أمي فكنتُ دائمًا أقول لنفسي ليست حقيقة الإنسان بما يظهره لك، بل بما لا يستطيع أن يظهره، فإذا أردت أن تعرفه فلا تصغ إلى ما يقوله، بل إلى ما لا يقوله.. فكنتُ أتحايل على نفسي وأعتبر نهرها لي نوعًا من الخجل والمكابرة. ولكن للحق كان تعطشي للحنان يفتك بقلبي، فآثرتُ أن أبتعد عن رؤيتها وأغيب خارج المنزل لفترات طويلة.

ومن هنا تصاعد لوم أمي الزائد لتأخري في العودة للمنزل، ولأن كليتي كانت عملية فقد كنتُ ألجأ للأعذار الدراسية، لم تصدق أعذاري، وبدأت بالفعل في ملاحقتي عوضًا عن سردها لبعض الافتراضات التي قد تصيب.

وكانت المهزلة الكبرى حينما دلفتْ إلى حرم الجامعة لتشدني من ذراعي وأنا بين زميلاتي وزملائي، وتصيح فيّ أنني أقترف تصرفات هي رجسٌ من عمل الشيطان، وأنها نبهتني سابقًا لعدم مخالطة البشر لأنهم قادرون

على إفسادي، وأخذت تصيح بهيستيرية كيــف أننـــي لا أسمع كلامها وهي من قضت حياتها تحميني من اقتراف نفس أخطائها،كيف أسمح لنفسي أن تسوء سمعتي وهي التي لم تبخل بجهدها لتحصنني منذ كنت طفلة من فــخ العواطف وتعدّني لمعركة الحياة.

كانت صدمة بالنسبة لي.. عن أي أخطاء تتحدث أمي؟! وما الذي حدث لها لتربيني تلــك التربيـــة القاســـية؟! وقتها انفعلتْ أمي وسقطتْ مغشيًا عليها،وتعرضتْ لذبحة صدرية كادت تودي بحياتها؛ لولا ستر الله.
حينها فقط انتبهت لخلفية أن أمي تُسقط علـــيّ آلامهـــا، وأنه لابد من ماضي يكمن بين طيات نفسها هو الســـبب في كل ما يحدث لنا.
انتظرتُ حتى تخرج من المستشـــفى قبـــل أن أفاتحهـــا لمحاولة معرفة تلك الآلام، وبالطبع لم يكن هنالك جواب سوى الصمت والنهر والزجر.

قضيتُ فترة طويلة وأنا في حالة توحد مع ذاتي، لا أملك من الحياة سوى رفيقتي الخيالية التي أحكي لها مشاكلي بين الحين والآخر، والتي أجسدها كيفما أشـــاء وقتمـــا أشاء، أجعلها ترتدي أي دور أحبه.. آنذاك كان فكـــري

مشتتًا بين ما أريده من أمي، وبين ما لا تستطيع منحي إياه.. بين ما توارد لفكري عن حياتها السابقة من خيالات وقصص، وبين الحقيقة المغلفة بصمتها وزجرها لي بين الحين والآخر.

ولكن برغم قسوة أمي عليّ، إلا أنها لم تكن يومًا سيئة السمعة أو منافقة في مواقفها الحياتية، لذا كان بقلبي سكينة وهدوء أنها لن تكون من الثلاثة الذين لا يخرجون من ثلاثة : شريف من دنيء، بر من فاجر، حليم من أحمق.

قلتُ لنفسي إن أمي ربما تعاني من أزمة الحياة داخل الوقت بحيث تستغرق تمامًا في واقعها، فتمتزج لديها أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل، فلا تعي مرور الزمن، ولا تدرك متغيراته.. أخبرتُ نفسي أنها تنتمي لجيل قديم، وأنها تعاني أزمة التواصل معي، فلا بأس بذلك، فهي في أول الأمر وآخره أمي.

كان ذلك نوعًا من المصالحة أعقده بيني وبين ذاتي، وبين ذاتي وبين صورة أمي؛ حتى لا يشوهها الواقع أكثر من ذلك. لجأتُ أنا للعيش تبعًا للوقت بصورة أخرى، فكنتُ أرى الزمن أمامي، حاولتُ الخروج من الاستغراق

فيه حتى لا أعطل حياتي وأصب اللوم على أمي، فأدركت أن لكل نشاط وقتًا مطلوبًا، وأنني من أملك الحياة وتحريكها، لا أمي ولا أبي ولا الآخرين.

لذا رتبت أوراقي بداخلي، وحددت بعضًا من أهدافي، واستغرقتُ تمامًا في عبور الوقت تجاهها، وأنا على يقين من أن رفضي لما هو دون مستوى القمة سيوصلني للقمة ذاتها، فاعترفتُ بخطئي السابق في امتهان حياتي وكرامتي دون وعيٍ مني، عوضًا عن المكابرة وإسقاط الخطأ على والدتي.. كنت أعتقد حينئذٍ أن تلك نقطة تحول في شخصيتي نحو الأفضل، ربما بالفعل كانت نقطة تحول لعقلي، فقد آمنتُ بأن من يريد تغيير حياته عليه فقط تغيير توجهاته وإدراكاته العقلية والفكرية، وأن الحقيقة تخضع لمعيار رؤيتنا للأمور، فكم منا أخطأ الرؤية نتيجة انقياده لأهوائه ورغباته وتوجهاته، وكم منا أدرك الأمر بصورة خاطئة فقط لأنه من داخل عقله كان يريد ذلك ليحظى بنوع من التوافق مع المجتمع والنفس، وكم منا ساءت حياته لأنه قال نعم في حين أن الموقف كان يستدعي كلمة لا.

ربما تعتقدين أنني استعملتُ تلك الآلية التي تسمونها التبرير في محاولة التغاضي عن سلوك والدتي، وعن

سلوكي السابق.. للحق لا أعلم، ولكن ما أدركه حقًا هو محاولتي استخدام ميكانيزم التعويض، نجحتُ في دراستي لأعوض فشلي على المستوى العاطفي داخـــل الأســـرة وخارجها، نجحت جدا لأعزز ذاتي المتهدمة التي هدمتها أمي.

خلال السنوات الأخيرة كنتُ قد تحولت بالفعل من كـــائن يلهث من أجل الحب لكائن رافض لكل ملامح الحب، ربما بدأتُ في تكوين عكسي بداخلي، فعكستُ الرغبة في الحب إلى نفورٍ منه، والبحث عنه لتفاديه.

لا أدرى ما أصابني، وكأنها نجحت أخيرًا فـــي توريـــد سمومها إليّ، فبعد طول صراع للخروج من دائرتها ما كان مني سوى السقوط في براثن وجعها وشخصيتها.

وكان الخُطّاب في تلك الفترة يتعاقبون على المنزل ليـــل نهار، وأمي ترفض وترفض وترفض، وأنا فقط أتـــابع، وكأنني أشاهد مسرحية هزلية.

كنتُ أستغرب ما الذي يحدث؟! هل هي من تتزوج؟! أين رأيي في الأمر؟ وأين والدي مني كل تلك السنوات، لماذا هو خارج إطار وجـــودي الفعلـــي؟! هـــل هـــو مقتنـــع بتصرفات أمي ويرى أنها الصحيحة دائمًا بدون نقاش؟! هل يعتقد أنها نجحت في تربيتي فقـــط لأننـــي متفوقـــة

وأدرس بكلية مرموقة؟! هل هذا هو معيار نجاح التربية فقط في منظورهم، بينما أنا من الداخل حطـام إنسـانة وأملك نفسية مشوهة؟!

• • •

ما جعلني آتيكِ الآن خوفي الشديد من نفسي، فقد لاحظتُ أنني بدأت أتشبه بوالدتي، وكأنني أعقـد اتفاقيـة مـع الوحش بأن أكون أكثر توحشًا منه.. أنا أخشـى علـى نفسي جدًا، فقد تحولتُ لمروجة لأسلوب أمي في التربية والقمع والقهر ونكران الآخر؛ برغم كرهي الشديد لهذا الأسلوب، وبرغم مقاومتي الداخلية لتلك الأفكار؛ أجدني أنصح صديقاتي في تربية بناتهن بها.

أصبح الحقد يغلف قلبي الصغير، ونظرتي للحياة تحولت إلى تصورات سوداوية، أمي لا تتغيـر؛ ولا تحـاول أن تتغير، ولا أدري كيف أتعامل معها، هل أنكرها وأتناسى أن لي أمًّا تمامًا، أم أقذف بنفسي في أول تجربـة زواج تقابلني الآن وأدخل لحياتي وأنا كـائن مشـوه روحـه ممسوخة، أم أنكفأ على ذاتي وأنسى القادم وأعيش كما أنا في بيت أمي وتلك البيئة السامة ولا أدخل حياة قادمة خوفًا من ضرري للآخرين؟!

فالأمر قد تطور معها حد أنها تخشى نجاحي وانفصالي عنها، وتحاول أن تحطَّ من قدر أي شيءٍ أفعله.
لا أدري هل الصحيح أن أنفصل عن بيتنا؟ ولكن كيف ونحن في مجتمع يرفض هذا رفضًا باتًا؟

أشعر أن الحياة تغتالني بأطرها الاجتماعية، فليست أمي فقط هي الجانية ولكني أتهم المجتمع أجمع بتشوهي الداخلي، لماذا لا يوجد قانون يساعدنا على الرحيل لما نجده أنسب، أليس من حقنا الحياة بشرف وراحة نفسية، لماذا لا يُعاقب الآباء على جرائمهم ضد أولادهم، أعني جرائم التربية، أليس ما اقترفته أمي يعد جريمة، ليست أسرية بقدر ما هي جريمة في حق المجتمع.
فهل تعتقدين أني قادرة على بناء أسرة تعتبر نواة لمجتمع سليم؟ ماذا سأفرز بنفسيتي تلك غير نفسيات أكثر تشوهًا، أليس الوجع يتراكم في النفوس ويتعفن؟.

أنا في حالة صراع ماذا أفعل؟.. ولأنني أشعر بنوع من المسؤولية جئتك، أصلحي من نفسيتي، أليست تلك مهنتكم؟ لم أعد أتناول طعامي، وأصبحت حياتي عبارة عن حلقة متصلة من البكاء.. أرشديني وأخبريني ماذا أفعل، فوالله اختلطت عليّ السبل، وأصبح عقلي عبارة عن شتات كبير.

كنتُ أعتقد سابقًا بأنني لن أعير الأمر أهمية، لأن كل فكري كان متوجهًا للدراسة آنذاك، ولكن بتواتر الأمور لم أستطع أن أتنحى بنفسي عن مسرح الأحداث، فوجدتُ كل تلك المشاعر تثور بداخلي، وكنتُ كالطير الذبيح أحاول أن أفهم من منا المخطئ ؟! ولماذا تتداعى حياتي هكذا وكأنها جحيم لا يطاق؟ لماذا أقف صامتة بعدما قررتُ سابقًا أن أقول كلمة "لا" وأواجه أمي، لماذا في نفس الوقت فقدت عدوانيتي تجاه أمي؛ وكأن ما يحدث يحدث لطيفي مثلاً؟!.. ازدواجية التفكير والإحساس سيطرت عليّ، مرة أكرهها، ومرة أشتاقها.. مرة أحزن، ومرة أفرح؛ بدون سببٍ يُذكر.. مرة أرفض الحياة، ومرة أتوق لكل لحظة سعادة.. أصبحتُ أتخبط في صراع من المشاعر المتضاربة.

بعد تلك الفترة بوقتٍ قليل؛ تقدم لي عريس جيد، بالفعل كان جيدًا، فوافقت والدتي عليه، ومن ثم تم إخباري بأن هنالك زوج جيد يا رضوى في الطريق إليكِ، نظرتُ لأمي وصرختُ فيها: تزوجيه أنتِ!

كانت صدمة لأمي، لأول مرة أعارضها بتلك القسوة، ولأول مرة أصرخ في هيستيرية،لماذا تطالبينني أن أكون مثلك، أنا لا أريد أن أكون مثلك، أنا لا أريد أن أكونك يا

أمي، ولا أعبأ بطريقة رؤيتك للأمور، احتياجاتك تختلف عن احتياجاتي، ومشاعرك تختلف عن مشاعري، البشر ليسوا متشابهين أبدًا، والزمن قد تغير، لن أتزوج من ترينه أنتِ مناسبًا للزواج، أريد أن أفرح مثل بقية البنات في مثل عمري، أريد أن أحِب وأن أُحَّبْ، هل تستكثرين ذلك عليّ؟، أنتِ لم تمنحيني يومًا حبك، فهل تبخلين عليّ أيضًا بحب آخر يختارني بقلبه وأختاره بقلبي؟!.

رد أمي عليّ كان في منتهى البلاغة حينذاك، هل تعرفين ماذا كان ردها؟.. صفعة قوية على وجهي، وبدأ سيل السباب القديم يُوجه إليّ مرةً أخرى، وراحت تتهمني بقصور التفكير وعدم الوعي والدونية، وبأنني أفتقد التربية واحترام الأم وتبجيل نظرتها في الحياة.. ومن ثم قالت لي بكل ثقة: "أنا أمك، كل ما أقوله ينفذ فورًا، لأنني أمك، وقد أمركِ الله ورسوله بطاعة الوالدين وبرهما، حتى لو كلامي خطأ من وجهة نظرك عليك إتباعه بدون مناقشة أو حوار".

وقتها لم أستطع أن أتحدث، هرولتُ من أمامها في حالة صدمة وأنا أخبرها أني أكرهها.. نعم، في تلك اللحظة شعرت بمدى كرهي لها، وكذلك كرهي لأبي، لأول مرة

أشعر بكرهي له، وكأنني أعاقبه على تركه لـي تحت سيطرة أمي، وعلى عدم تدعيمه الحياتي لي.

كان من اليسير أن أستغل تلك اللحظة وأعبر عن كل احتياجاتي منها، ولكن لا أدري لماذا انعقد لساني.

وجدتني أتساءل ألا يدرك الآباء أهمية التفاعل الاجتماعي في الأسرة، ألا يدركون أن الظواهر السلوكية غير المقبولة في الأطفال والتي تمتد لمرحلة الشباب فتصبح من أهم سمات الشخصية فيما بعد؛ تنجم من الوحدة والكبت، ومن إهمال الحقيقة الخاصة بأن كل ما هو إنساني كامن في شبكة عنكبوتية من العلاقات بالآخرين منذ خلْق الإنسان في رحم الأم وحتى الممات، حيث يعيش الجميع في إطار من التفاعل.. ألم يقل ابن القيم الجوزية إن أكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم.

لماذا كل ما يفعله الآباء التسلط والمن على أبنائهم بتربيتهم لهم؟ لماذا يوردون لهم إحساس أنهم يتصدقون عليهم بما يفعلونه من أجلهم، أليس هذا واجبهم، وأليست تلك سنة الحياة؟.. كم أكره أبي عندما يقول لي: أنا فعلت كذا وكذا من أجلك يا رضوى، أنا أب جيد والله، الكثيرون يجعلون أولادهم يتشردون.

وقتها تذكرت الآية القرآنية الكريمة التي تقـــول{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.

تلك شريعة شرعها الله للغرباء، فما بالك بمـــا شـــرعه للأبناء ولحقوقهم على آباءهم.. فقد جاء في قصة رجل جاء إلى عمر بن الخطاب؛ يشكو عقوق ابنه، فأمر عمر رضي الله عنه بالابن فحضر الابن وسأله عمر عن ذلك فقال الابن يا أمير المؤمنين قل لي قبل ذلك ما حق الابن على والده؟ قال له عمر: أن يختار له الأم الصالحة، وأن يحسن تسميته، وأن يحسن تأديبه أو تعليمـــه. فأجـــاب الابن : ولكن أبي ما فعل شيء من ذلك، فقد اختار لـــه جاريه سوداء لا تعرف من الإسلام شيئًا، ولقد ســـماني جعلاً (خنفساء) وما علمني شيئًا لا في أمور دينـــي ولا دنيتي...... عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نهايـــة النقاش رد على ذلك الأب بعد أن بكى قائلاً: لقد عققـــت ابنك صغيرًا فعقك كبيرًا.

هل هذا ما ينشده آباؤنا، كما تدين تدان، ولأنني لا أحب ذلك لوالديّ برغم من تجاهلهما لحقوقي، فلم أجد بدًا من محاولة معرفتي لماضي أمي لعلي ألتمس لهـــا العـــذر، فذهبت لجدتي أستغيث بها من كل ما يحدث...
للمرة الأولى أرتمي في أحضان أحد أفراد العائلـــة دون خشية لصراخ أمي، قلت لها أرجوكِ لماذا تفعل معي كل هذا؟ أشعر أنني إنسانة مشوهة، لم أعد قادرة على منح الحب، وحتى لم أعد قادرة على تلقيه، الزيف يحيط بي من كل زاوية، وصراعي بين ما أرى وبين ما تربيـــت عليه يدمرني، فبرغم انغلاق والدتي لم تمنحنـــي يومًـــا مرجعية دينية أهتدي بها وتكون منارتي في بحر الحياة المتلاطمة أمواجه.

جاءني رد جدتي كالصاعقة، فأمي عاشت حياتهـــا كمـــا نقول بالطول والعرض، لاقـــت المحبـــة مـــن الجميـــع، وأصابها الغرور جراء ذلك، فانساقت للهوها، وفشلت في دراستها وحولت مسارها من إحدى كليات القمة لكليـــة متواضعة كي تستطيع اجتيازها، عاشت فتـــرة طويلـــة تتعاطى مضادات الإكتئاب، وحاولت الانتحار أكثـــر مـــن مرة.. فشلت في الحب فتركها خطيبها الذي كانت تعشقه ومن ثم تزوجت أبي، وعاشت حياة عاديـــة جـــدًا، ثـــم

أنجبتني ولم تفرح بكوني فتاة عند ولادتي، ذكرت لـــي جدتي أنها بكيت بشدة ورددت: "أنجبتها فتاة لتلاقى نفس مصيري"، ومن ثم أقسمت أن تجعل قلبي حجرًا صـــوانًا لأستطيع اجتياز الحياة، ورفضتْ أي تدخل من العائلة في تربيتي أو تصحيح وجهة نظرها، فآثرتْ إبعـــادي عـــن الجميع لأنها حمّلت عائلتها وزر أخطائها.

لم أكن أتخيل أن والدتي مرّت بهـــذا الكـــم مـــن الآلام والسقوط، لم أكن أعلم أنها حطام إنسانة وأنها تملك هذا الكم الهائل من الأزمات النفسية.. ولكن ما ذنبـــي أنـــا؟ لماذا توجهها لي؟!.

برغم شعوري بالشفقة عليها؛ وجدتني أتساءل: لماذا لم تحاول أن تحتويني وتحتضنني بالحب عوضًا عن حرماني منه؟! هل تعتقد أن أسلوبها سيلغى قدرتي على الشعور بالعواطف نهائيًا، وبأنها بذلك تحميني؟! لمـــاذا كانـــت سلبية في كل أمور حياتي عدا العنف والحدة في التعامل، والسخرية من نجاحاتي، وزرع مشاعر الدونية بنفسيتي؟ أتذكر إني كنت آتيها وأنا محققة إنجـــاز بنســـبة ٩٩% فتسألني وأين ذهب الـــ ١ %، عوضًا عن تشجيعها لي.

كنت أحتاجها بجواري، كأم أولاً، وكصديقة وكحبيبة وككل شيء في الحياة، أفتقد نصيحتها، تربيتها المتوازنة، حضنها، ابتسامتها، تشجيعها، مؤازرتها لي وقت الفشل لأنهض من جديد، عدم سخريتها وشماتتها..
لماذا انحصر دور أبي على المال فقط وبعض التوجيهات بسماع كلام أمي بصورة مطلقة؟ أين كان مني وأين ذهب دوره في تشجيع التواصل الاجتماعي بين أفراد العائلة؟

لقد جعلوني نبتة امرأة مشوهة لا تملك قلبًا يعرف المعنى الحقيقي للحب، فكل محاولاتي السابقة للشعور بالحب كانت محاولات مبتسرة ومشوهة، كيف أمارس الحب وأنا لم أعرفه يومًا في حياتي.

هل تعتقدين أني قد أكون أمًا صالحة فيما بعد، ألن أهاجم ابنتي ولو بنوعٍ من الحقد المستتر تجاهها، فكيف تعيش هي ما لم أتمكن من معايشته والشعور به؟!

حسنًا حسنًا.. أتعتقدين أن هذا كان شعور والدتي تجاهي أيضًا؟ ربما كانت تحقد عليّ بدون أن تدري، فأنا أتذكر دومًا مقولتها لي: (ليتك كنتِ "ولد"؛ كنتُ تخلصت من همك)... وهذا ما أكدته لي جدتي.

أي هم تتحدث عنه أمي؟! لماذا تحكم عليّ إسقاطًا على تجربتها؟ لماذا لم تفتح نافذة وعيها على متغيرات حياتنا الحالية وتعرف أن متطلبات الأجيال تغيرت بتغير الزمن، فما يصلح لعصرها لا يصلح لعصري، وما تربت هي على أساسه تغير بتغير البيئة الاجتماعية. لماذا لا تدرك أن احتياجات الأفراد في المنزل الواحد تختلف، لماذا لم تفهم أن تجربتها لا يمكن تعميمها، وأن مرجعيتها المشوهة لا يمكن أن تكون دستورًا يطبق على الآخرين.

هنا بدأت أفهم خلفية صراعات والدتي، فهي أنثى، والأنوثة حالة انفصام في الشخصية، في الوقت الذي يجب أن تكون فيه ضعيفة ومقهورة وعاجزة ومتلقية للمساعدة من الآخرين، عليها أن تقوم بأعمال تقدم فيها المساعدة وتبدي فيها القدرة على التوجيه والاحتمال لمصاعب الحياة. وجدتني في تلك اللحظة أختلق لها المبررات، وأخلق لنفسي عالمًا آخر يحميني من الحرمان العاطفي الذي أعانيه. وجدتني أيضًا مقصرة جدًا في تفاعلي معهما، لم أكن أشرح لهما احتياجاتي، لم أكن أتحدث، لم أكن أقول أنا أريد هذا أو هذا، لم أحاول مرات ومرات أن أخلق حلقة للحوار ولم أحاول تمرير الاختلاف في الرأي بصورة مناسبة يتقبلانها.

أقسمت أن أتجاوز ما مرّ، وأن أعلم أمـــي وأعالجهـــا، وجدتني أسمو وأتعالى في احتياجـــاتي، وأوجـــه دفعـــة مشاعري بصورة مغايرة لما كنت عليه من قبل، فبدأت أتقرب من الله كثيرًا، ودائما أتذكر قوله تعالى:

{ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }.

من هنا وعدت نفسي بالمثابرة في محاولة تغييـــر أبـــي وأمي، وفي محاولة هدم فكرة أن الأنثى مهيـــأة لقبـــول الحرمان على أنه أمر طبيعي، مما يجعلها لاحقًا تضعف جدًا في الدفاع عن مصالحها أو في مطالبتها بما تحتاجه أو في الصراع من أجله أيضًا.. فلقد اكتشفت أن المرأة تنكر على نفسها الغضب عندما يُسلب حقها، وتنكر على نفسها خيبة الأمل أيضًا، وتصاب بلوم مكثف للـــذات إذا صدها أحد ما أو خذلها، لا لشيء، إلا لأنها في قـــرارة ذاتها تم تربيتها على أن سبب كل ذلك هو ســـلوكياتها، فيجب عليها أن تذعن على طول الخط لتكتســـب لقـــب الطيبة والحياء، عليها أن ترضي بكل ســـلبيات الحيـــاة متخيلة أنها المتحكمة في الأمر، بينما هي ليست كذلك.

فأمي صدمت، ولأن الفرد إذا عجز عن مواجهة مشكلاته بصراحة فان ذلك يدفعه إلى أساليب من التكيف يقصـــد بها تخفيف حدة التوتر الناتج عن الإحباط؛ فلجأت أمـــي دون أن تشعر لما يعرف بـــ"الحيل الدفاعية"، وهى عملية لا شعورية ترمي إلى تخفيف التـــوتر النفســـي المـــؤلم وحالات الضيق التي تنشأ عن استمرار حالة الإحباط مدة طويلة بسبب عجز المرء عن التغلب على العوائق التي تعترض إشباع دوافعه.

هنا كان عليها أن تختار مايناسب مشكلتها من تلك الحيل كي تستطيع التوافق مع المجتمع ومع نفسها، فوالـــدتي هنا أسقطت خبراتها السيئة عليّ، بل وعممتها أيضًـــا، ولأنني بدوري كان عليّ أن أخفف وقع الضـــغط أيضًـــا لجأتُ للتعويض والإعلاء والتسامي فوق ما مررت بــــه، فالنفس البشرية يحكمها مبدأ الحياة الوجدانيـــة، وهـــو البحث عن السعادة وتجنب الألم.

عندما انتبهت لكل ذلك كان عليّ أن أعالج موقف والدي أيضًا في مخيلتي، فوجدت أنه ربما كان مخطئًا ومسكينًا في نفس الوقت، كان مخطئًا لأنه استسلم لسيطرة أمـــي وترك لها دفة قيادة السفينة الأسرية ولم ينتبه إلـــي أي وجهة كانت تبحر بنا، كان يجب أن يعلم أننـــي كابنـــة

أحتاجه إلى جواري ليكون نموي مكتملاً وصحيحًا، فالأب له دور عظيم في البناء النفسي للطفل والمراهق والشاب. يعتبر عموده الفقري وأساس من أسس التربية والقدوة الحسنة له.

لم يكن عليه أن يتغاضى عن كل شيء في سبيل المال، المال مهم جدًا نعم، ولكنه لن يحقق لي تكاملي النفسي.. لم يكن عليه أن يتابع النشرات الإخبارية ويتجاهلني عندما أحاول محاورته أو اللعب معه وأنا طفلة.. لم يكن عليه أن ينهرني بقسوة على تصرفاتي ولكن أن يشرحها لي رويدًا رويدًا ويعلمني الفرق بين الصواب والخطأ..

لم يكن عليه أن يحكم بمعايير المجتمع القديمة على جيلي الحالي، فالمتغيرات والمثيرات وضوابط السلوك اختلفت، فما كان يحتك به سابقًا أصبح باليًا بالنسبة لنا... كان عليه أن يحصنني من كل ذلك بعلم الحياة، نعم علم الحياة.

أراه مسكينًا في نفس الوقت، لأنه ربما عانى من مشاكل شخصية مع أمي، فما لاحظته كان الصمت المطبق على المنزل، لا حوار بينهما.. ولأن الرجل مكبوت بشدة بما يفرضه عليه دوره الاجتماعي ورجولته، فغضبه لا يظهر بصورة مباشرة، ولكنه يحتال في إظهاره، فتفتر مشاعره

تجاه المرأة.. ربما لذا أعتقد أن والدي آثر الانسحاب إلى داخل ذاته، لكي يكبت كافة انفعالاته المصحوبة بــرفض المرأة له، وليحمي نفسه مــن الآثــار الســلبية لتلــك الانفعالات، محاولاً ألا يتعصب لكونه رجلاً. فجاء توافقه بصورة سلبية جدًا، إذ سيطر عليه التعالي ولجأ لتكوين رد فعل عكسي ضد أمي، وأصبح شخصية لا تشعر سوى بالعظمة المزيفة. وهكذا انسحب منا والدي تجاه عملــه وتوهماته وحياته النفسية الخاصة.

هنا تذكرت نفسي حينما كانت تجتاحني نوبات البكــاء، وتواردت إلى ذهني مقولة "سيمون دى بوفــوار" : (إن قدرة المرأة على البكاء بسهولة ترجع بدرجة كبيرة إلى حقيقة أن حياتها مبنية على أساس من الثورة العاجزة). يا الله كم أثّرت على نفسي وعلى والدي وعلى المجتمع أجمع، وكم تكتل العجز عليّ ليضعني على حافة الإكتئاب أحيانا، والذهان أحيانًا أخرى.

ولكن بعون الله وفضله ومثابرتي استطاعت بصيرتي أن تلهمني الصواب، فحددت هدفًا وأنجزته، وكانت مشكلتي سببًا لتفتح إدراكي على الرغبة العارمة فــي معالجتهــا بنفسي وبصورة ذاتية، فلجأت لتخصصي الحالي.. فمن يثق بك إن لم تثق أنت بقدرتك على علاج ذاتك؟ ومــن

يمنحك الطمأنينة إن لم تستطع أنت أن تمنحها لذاتك؟
كانت ثقتي عالية جدًا في إمكانية حل أزمتي مع عائلتي وإصلاح ما أفسدته والدتي ووالدي، بل والأخذ بيـــديهما لنوجه دفة الأسرة نحو بر الأمان و.........!!

• • •

هنا صمتت رضوى، ونظرت لعينيها في المرآة المقابلة وهي تبتسم بفخر وخيلاء، وتنهدت تنهيدة كبيـــرة جـــدًا توحي بعبورها حالة مكثفة من الشجن، ومن ثم أراحت ظهرها على المقعد الوثير خلف مكتبها رافعـــة رأســـها لأعلى، وإذا بطرقات على باب الغرفة لتدخل الممرضـــة حاملة في يديها تقرير المرشدة النفسية قائلة:

- دكتورة رضوى ها هو تقرير حالة هبة، هل أدخلها؟.

تنظر رضوى للتقرير وتبتسم حين تجد أن توصيف الحالة يقع ضمن نطاق (مشاكل أســـريةFamily Problems) والإكتئاب التفاعلي.. فترد:

- أدخليها، ولا أريد إزعاج.



خاتمة

(نحن نسقط لكي ننهض

ونُهزم في المعارك لنحرز نصرًا أروع

تمامًا كما ننام لكي نصحو أكثر قوةً ونشاطًا)

براونبغ

قصة رضوى مثال يختزل بعضًا من مشكلات الفتيات مع أمهاتهن، من تخاذل الأم في التربية، وانعدام الحنان والتواصل اللغوي والعاطفي بين الأبناء والآباء.. لكنها كانت مثالاً للتكيف وبُعد النظر وحسن إدارة الأزمة.

لعل من الملفت لنا في تلك الحالة ليس القصور في تربية رضوى، ولكن القصور في طريقة تعاطي أهلها معها، وكذلك القصور في سلوكياتها تجاههم في المراحل المبكرة.

فكلنا نطمح لأُسر سعيدة وأبناء ناجحين ومتوازنين،

ولتحقيق هذا الحلم نجد الأب والأم يعمدان إلى أسلوب خاص بهما في التربية، خاضع لوجهة نظر وأسلوب ورؤية محددة في الحياة، قد يكتسبها الفرد من مرجعيته وخبراته وطريقة تعاطيه مع ظروف الحياة ونظرته للأمور عبر مراحل حياته المختلفة، وقد يتلقنها أثناء تربيته عبر السلف من والديه وجديه وأقاربه الكبار.
فنجد مثلاً بعض الفتيات يتحدثن إلى أنفسهن قائلات: أنا لن أفعل كذا وكذا عندما أتزوج، ولن أتبع هذا السلوك مع ابنتي. أو أنا سأعامل فتاتي بهذه الصورة، ولن أعاملها بتلك؛ لأحميها من آثار نفسية معينة قد تعرضتُ بدوري لها عندما اختبرت هذا النوع من التربية.
جميعنا نفعل ذلك ونحن لا ندري أن كُلاً منا يُسقط تجربته الذاتية على أطفاله، لنعيد إنتاج الأدوار التي مررنا بها بصورة قسرية، ولكن بهيئة مخالفة.

فعلى سبيل المثال:

والدة رضوى تلك التي تعرضت لأنواع من الخداع والممارسات التي أفقدتها الثقة بالبشر بشكل عام؛ وبالعواطف بشكل خاص، ما فعلته أنها أقسمت ألا تدع ابنتها تسقط في آلامها، وتجاوزت حرية الفتاة في العيش والاختيار، فما كان منها إلا أن أعادت الدور الذي مارسه

عليها المجتمع سابقًا بصورة قسرية، لتصبح هي ذاتها معول من المعاول التي ساهمت في تشوه نفسية ابنتها، بل وفي خلق مساحات واسعة من الجفاء، بالرغم من أن المقصود كان غير ذلك تمامًا.

لو كانت الأم هنا ساهمت في تذكية تجربة رضوى في الحياة، وأتاحت لها الفرصة لاختبار تجربة الأم الخاصة، وعرضت لها نتائجها بصورة ودية ومبسطة ولو بطريق غير مباشر عن طريق قص بعض الحكايات التي تحمل النصيحة بصورة ضمنية، مع لفت نظر الفتاة إلى بعض النقاط التي تستوجب التوضيح والتشديد عليها، مع خلق مساحات من الود والدفء الأمومي.. فهل كانت النتيجة ستكون كما تبين عاليه؟! أم أن النتيجة ستكون فتاة تحظى بحياة نفسية متوازنة وبقسط عالٍ من الصحة النفسية؟.
سأترك الإجابة لكم!.

ما لا تدركه أغلب الأمهات أن علاقتها بأطفالها تبدأ من أولى لحظات الحمل، وأن رفض الطفل أو قبوله يؤثر بصورة كبيرة على نموه فيما بعد.

والدة رضوى هنا كانت مثال واضح لأزمة لم تحل،ونعني بالأزمة حدوث تغيرات كبيرة في حياة الفرد يصعب عليه تجاوزها بسهولة مما يخلق لديه نوع من الارتباك يدوم لفترات طويلة ويصبح سمة سلوكية من سمات شخصيته. فهي تعرضت لخداع في حياتها خلق بداخلها "أزمة أنوثة وإثبات ذات" بل والأكثر من ذلك أنه شوه نظرتها للمرأة لتراها كيانًا اجتماعيًا ضعيفًا قابل للإغواء، مما جعلها تتخذ موقفًا عدائيًا من أنوثتها، بل ومن معاملة المجتمع للأنثى، فتنكرت لمشاعر ابنتها وحاولت طمسها بشتى الطرق وسحق هذا الكيان الأنثوي الضعيف.

فما الذي فعلته والدة رضوى هنا لتحقق مآربها وتحل أزمتها على مستوى الشعور؟ أزاحت كامل عدوانها الذاتي وقلقها العصابي نحو كائن أضعف منها ولا يقوى على مجابهتها وقابل للتشكيل والانصياع، مخيلاً إليها بصورة لاواعية أنها تساهم في إنشاء فتاة قوية تعوضها عن ضعفها الذاتي، وهى لا تدرك أبدا أنها تحاصر إرادة إنسانية وتمنعها من النمو والتطور بصورة سوية ومتوازنة، فهي ساهمت في تشوه ابنتها الداخلي ومنعتها من الشعور بالانفرادية والتميز والقدرة على اتخاذ القرار.

ربما ما ظهر لاحقًا من تداعيات حياة رضوى كما سردته القصة يجعل كلامنا السابق غير منطقي وقابل للتفنيد والإلغاء، ولكن رضوى هنا كانت صورة من صور التكيف الذاتي والقدرة على المجابهة والنجاح، مع لمحة من لمحات إعاذة التأطير للتجربة وتبادل الأدوار.

فليس كل بناتنا لديهن تلك الموهبة الفريدة، فكم من فتاة مورست ضدها تلك الأفعال السلبية والجرائم التربوية، وكانت الخسارة فادحة على مستوى الأسرة والمجتمع، من خلق كيانات لا تصلح بتاتًا أن تكون لبنة لبناء أجيال قادمة، وربما هذا الخلل في التربية هو ما تفتق عن الكارثة المجتمعية التي نلحظها الآن في مجتمعاتنا من فتيات بلا دين ولا خلق ولا منطق ولا هوية، مسلوبات الإرادة، مموهات الاتجاه، هلاميات النظرة للحياة.. فهل كل فتاة ستكون نموذج نجاح كـ"رضوى"؟!!

بالطبع لا، فكل منا يتفاعل مع الموقف بما يوفره له بناؤه الشخصي، وربما تفوق رضوى الدراسي كان أساسًا من أسس تماسك شخصيتها، فالقدرة العقلية المتطوره تحمى صاحبها في بعض الاحيان من السقوط عن حافة الحياة الكريمة.

ما لا ندركه أن الحياة وفرت لنا نماذج نجـــاح كثيـــرة، والإنسان لا يحتاج بالضرورة السعي نحو نموذج جديــد أو خبرة ذاتية خالصة ليطبقها في حياته، بل ربما عليه الموازنة ما بين خبرته الذاتية والنماذج المتاحة لينتقي منها أفضل ما يناسب واقع حياته الحاليـــة، وظـــروف المجتمع بمتغيراته؛ والتي يخضع لها الأبناء ويتفاعلون معها عبر مراحل نموهم المختلفة، فالنموذج الناجح قــد يقبل التعديل والتكييف وإعادة التشكيل والقولبة ليناسب نمط حياتنا الذي نريده.

فالأسرة هي الوسيلة والأداة التي تمنح الأفراد الرصـــيد الأول من أساليب السلوك الاجتماعية، وكأنهـــا تمنحـــه الضوء الذي ينير دربه فيما بعد، والبوصلة التي توجـــه حياته وترشده في جميع تصرفاته، فهي المدرسة التـــي تلقنه القيم والمعايير وتعده للتفاعل الاجتماعي وتعمـــل على تشكيل شخصيته منذ المهد، فنجد أن كل إنسان منا يطبق ما تربى عليه من قيم ومعايير وســـلوكيات فـــي تفاعله مع الآخرين، فأي حياة تريـــدون لأبنـــائكم، وأي وجهة لهم ترسمون؟!

فهل فكرنا جميعًا أن الطفل منذ المهد إلى مرحلة الشباب نحن من نضع له قوانينه الداخلية، ونحن من نثبت لـــه

مفاتيح ذاته، فمنذ ولادته نلقنه أول دروسه في الصواب والخطأ، فيما يجوز ولا يجوز، في الجيد والسيئ، وما عليه أن يفعل وما يجب أن يتجنبه، بدون نقاش أو مراجعة.

هل فكرت كل أم، وهل فكر كل أب أن هذا الرصيد من السلوكيات يحمله الطفل معه أثناء التدرج في أدوار حياته، وهل أيقنا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الرصيد الأول هو الرصيد الثابت؛ويزيد عليه ما يكتسبه الفرد من سلوكيات أثناء نموه، فالأصل هنا لا يتغير ويجتذب ما يشابهه وما يتماشى معه من سلوكيات جديدة عبر كل مراحل نموه.

فعلى كل أب وأم منا أن يعلم جيدًا أن التربية والتنشئة الاجتماعية هدفها الأساسي تكوين الشخصية الإنسانية للأبناء وتنمية ذواتهم بصورة إيجابية، وليس طمسها والتحايل على فرصهم في الحياة ليكونوا صورًا ممسوخة منا. فعليهم أن يعملوا على تكوين الضمير عند أولادهم بغرس القيم الايجابية والتأكيد على مفهوم الذات الايجابي بتلاشي أسلوب التشهير بالأبناء وبسلوكياتهم أمام الغرباء، بل والتعامل معهم بنوع من النضج والحكمة،

فعقل الصغير يسجل كل كلمة وحرف وسلوك وتصرف، ليعيد إنتاجه فيما بعد على مستوى تفاعلاته القادمة.

الكثيرون من الآباء لا يدركون أن كل الأمور التي ترتبط بالفرحة والحزن والألم والسعادة هي أدوات مهمة في تشكيل كافة جوانب حياتنا.. بإدراكهم لتلك الحقيقة سيعملون جليًا على تغيير أفعالهم لتتغير نتائجها على أطفالهم وعلى أنفسهم بما يضمن للنتائج الايجابية أن تنعكس بمستقبل مشرق.

فالحياة ليست هي من يرسم لنا طريقنا، ولكن ما نحمله داخل عقولنا من معتقدات تمثل قوى مهمة للبناء والهدم؛ كما أوردنا في الفقرات السابقة، فعلى أساس مخزوننا من تلك المعتقدات تتكون لدينا صورة نهائية وثابتة للحياة ننحو نحوها، وعليه فعلى الجميع أن يقف مع ذاته لبرهة ليتأمل ما يمتلكه داخل عقله من موروثات عبر تربيته، فيعمل على تفريغها ويضعها أمام وعيه في حالة من التقييم والانتقاء والنقد، ومن ثم في تلك الحالة علينا أن نلغي تمامًا فكرة تقييم الآخر لنا إن تخلينا عن موروث معين أو أسلوب تربوي بذاته، فالآخر ليس من يدير حياتنا، ولن يمضى معنا كل وقتنا، ولن يهبنا

السعادة، فلن يكون سوى محور للنقد فقط، وليس علينا الانصياع له ولنظرته وانطباعه العام عنا، فهـو لـيس جلادًا يحتم علينا أن نعيره الاهتمام الكلـي بمـا يفسـد استمتاعنا بحياتنا الخاصة، وإن كان النقد البناء له دوره، وهنا تكمن قوة العقل وحكمته في النظرة الكلية للأمـور وانتقاء ما يناسب حياتنا.

فالأجدر بالآباء معاملة أبناءهم بعين البصيرة والحكمة، فحتى الآباء الناجحون والأسـر المتوافقـة لابـد وأن تعتريها عثرات الحياة لتضعها في خضم التجربة، فالتعثر والتخبط لبعض الوقت ليس هو الأزمة، ولكن دوام التخبط هو الأزمة بعينها.

إذا كانت رضوى خالفت رؤية والـدتها التربويـة مـن الأساس، فكان لابد أن تراجع الأم هنا أولوياتهـا بعقـد جلسة مراجعة فيما بينها وبين ذاتهـا لتقيـيم أسـلوب التربية بما يتماشى مع طبيعة شخصية وانفعالات ابنتها وطبيعة المجتمع المحيط بها، متفادية تمامًا انفعالاتهـا الخاصة، مع التحكم المثالي في رغبتها في النقد والتقييم العنيف، فلكي نجعل الآخرين يقتنعـون بأسـلوبنا فـي النصيحة؛ علينا أولاً علاج اندفاع مشـاعرنا ودوافعنـا

وتغيير وجهة أحاسيسنا الداخلية، حتى يحدث تحول المشاعر بالانفتاحية نحو الآخر فيشعر بما نريد أن نوصله إليه دون عنف أو مقاومة حسية.

فالعلاقة التربوية علاقة محبة واحترام في أساسها،ومن يحب دون قيد أو شرط وفق طبيعة الآخر يتعلم خلال رحلة الحب تلك كيف يتوافق مع عقله ويتقبله؛ وإن بدا له غريبًا ومختلفًا، فجميل جدًا أن نجعل أبناءنا يشعرون بالحب في كل المواقف؛ حتى موقف النقد؛ بالرغم من ميلنا الشديد أن يسلكوا وفق منهجية سلوكية معينة نحن نراها أصح وأسلم.. ولكن ألم يفكر كل منا هل نحن قادرون على تصدير شعورنا بالحب نحوهم ونحن في أشد حالات عصبيتنا وثورتنا؟!

هنا لن أجيب، سأترك الإجابة لكم.

إن استطاع كل منا أن يخلق مساحة الود تلك التي تضمن لنا التفاعل مع أولادنا في محيط العائلة بنوع من الألفة والتسامح واحترام رأي الآخر ومنحهم مساحة من النقاش وإبداء وجهات النظر، فسنكتشف أن الرؤية المشتركة تحمى الأفراد من الاتجاه نحو المعايير الخاصة والفردية والحكم بناءً على المرجعية الذاتية للشخص دون احترام وجهة نظر الآخر، ولا احتياجاته ورغباته،

وهذا السلوك كفيل بخلق نوع من التشوش في المحيط الأسري.. فالفكرة هنا تكمن في تكوين رؤية يتقاسمها كل أفراد الأسرة.

ولكن مشكلة الآباء طوال الوقت استدعاء خبراتهم الاسترجاعية ليعيدوا تطبيقها من جديد على أرض الواقع في أبنائهم، متناسين تمامًا أن ظروف الحياة اختلفت عما كانت عليه سابقًا، وأن المؤثرات التي كان يخضع لها الآباء تغيرت كليًا عن مؤثرات العالم الحديث التي يخضع لها أبناؤهم، والخبرات زادت بازدياد الانفتاحية على الآخر.. فمنذ حوالي عشرين عامًا أو أكثر كانت كل الظروف مدعمة للأسرة، وتعمل على الحفاظ على هذا الكيان المقدس من الهدم، بل وربما تدعمه وتؤازره، ولكن بتغير البشر واتجاهاتهم، وبما تبثه اليوم مختلف وسائل الإعلام مع تغير اهتمامات الشباب؛ نجد بعض السلبيات التي تعمل على ترسيخ لبعض السلوكيات والأطر الهدامة، وليس ذلك فقط، بل وتواتر ظروف الحياة وقسوتها أدى إلى تشوه هذا الكيان الأسري وتفسخه.
فلاحظوا معي الآن دور الأجداد في العلاقات الأسرية يختلف تماما عن دورهم منذ عشرون عاما أو يزيد فقد

كانت العلاقات العائلية في أوجها، والمحافظة على أواصر العائلة يعد من التقاليد الراسخة غير القابلة للنقــاش أو التنحي عنها، لم يكن الوالدان فقط هما عموديّ التربية، ولكن الأجداد كانوا يساعدون وبقوة في ذلك. ولكن الأمر يختلف الآن كليًا؛ وبالطبع الأمر غير قابل للتعميم؛ ولكن الكثيرون منا أدت بهم قسوة الحياة بظروفهــا الماديــة والاقتصادية إلى الانشغال والتوتر الدائم بخصوص رغبتهم في كفاية المنزل وكفاية أسرهم من كل ناحيـــة، فيعــود الوالد أو الوالدة منهك الجسد، وفي حالة من التـــداعي النفسي من لهثه وراء المادة، فيتناسى تمامًا؛ وربما عن قصد؛ واجباته تجاه عائلته الكبيرة، ويقتصر الأمر على التواصل التكنولوجي فقط، فمـــع دخـــول التكنولوجيـــا الحديثة لحياتنا حدث ما يمكن تسميته "الاختزال العلائقي التكنولوجي"، ونعني به أن الموبيل على سبيل المثـــال جعلنا نختزل تلك اللقاءات الأسرية في مكالمـــة هاتفيـــة تمتد لدقيقتين وربما أقل، وتخضع أيضًا تلـــك المكالمـــة الهاتفية للحالة المزاجية العامة، ولعامل التفرغ وامتلاك ناصية الوقت.

وبالطبع باستمرار ممارسة هذا الفعل يتحول لعادة ونمط سلوكي ملاصق للشخص، خاصةً إذا كانت الاستجابة من

الطرف الآخر مشجعة على ذلك وتحمل جانب اللامبـــالاة والتسليم بالأمر الواقع، مما ينتج عنه أن تلك العـــادات السلبية تصبح ملاصقة لنا ونستغني بها عـــن العـــادات الحية للعلاقات الإنسانية.. فالاتصال بالعائلة عن طريق الاحتكاك المباشر يولد فرصة لحدوث لقاءات قادمة، بينما الاكتفاء بمحادثه هاتفية لن تدوم سوى دقائق قليلة جدًا من الوقت غير كفيلة بإحداث تلـــك الفـــرص الشـــبيهة بالشرذة التي تحمي وطيس العلاقات وتجعلنا في ديمومة التواصل والاشتعال الأسري العاطفي. وبالطبع هذا له أثر سلبي على الأبناء.

فإن عدنا لحالة رضوى، نجد أن والـــدتها قطعـــت كـــل علاقات ابنتها بعائلتها في محاولة لتفـــادي أثـــر تلـــك العلاقات واللقاءات الأسرية كي تتفادى نقدهم لها عـــن طريقة تربيتها لابنتها، وأيضًا لتمنع اكتســـاب رضـــوى لخبرات حياتية تختلف عما ترغبه والدتها لها.

فهل فكرت والدة رضوى يومًا بأن ابنتها تمتلك روحًـــا يجب أن تُحترم، ولها رغبات يجـــب أن تكشـــف عنهـــا وتدرسها بعين بصيرتها؟.. لم تفكر الأم إطلاقًـــا بتلـــك الصورة، لأنها لا تدرك معنى فهم الآخر، فمحاولة فهـــم

أنفسنا تفتح الباب على مصراعيه لفهم الآخرين لنا، فلو أدركت والدة رضوى احتياجاتها النفسية لتمكنت من الفصل بين ما تريده هي وما ترغبه، وبين ما يجب أن ترى ابنتها عليه.. فرؤيتنا للحياة ليست بالضرورة نفس رؤية الآخرين لها، فالقاعدة الغالبة "أن الناس لا يدركون الحياة كما هي فعليًا، ولكنهم ينظرون للعالم كما يريدون، وكما يعتقدون".

فالكثير منا قد يرى الموقف بأكثر من صورة؛ برغم أحاديته، ولربما كانت الرؤية المزدوجة تلك من أكثر الأسباب في اختلال الفهم، حيث يحكم كل شخص على الموقف من نظرته ومن مرجعيته هو، ولا يعطى عقله فرصة التفكير بطريقة أكثر انفتاحية على رؤية الآخر، فعند اختلاف شخصين ليس بالضرورة أن يكون أحدهما مخطئًا، فالاثنان ربما على صواب من وجهة نظر كل منهما، لذا علينا إدراك الاختلاف والتعامل معه بحكمة، فالجمود في تلك الأمور ليس محمودًا، خاصةً إذا كان تفاعلاً بين الآباء والأبناء.

فإدراكنا لحاجات أولادنا يجعلنا نفكر بنوع من المنطقية بعيدًا تماما عن التعصب أو الحكم الذاتي مما يتيح للأسرة أن تعيش في حالة معتدلة من الصحة النفسية. فكي

تكون على وفاق مع شخص ما عليك بفهمه والقرب من قلبه وعقله ومحاولة استيضاح مكنوناته، فسوء الفهم هو الغالب على العلاقات الإنسانية، نتيجة للبعد عن محاولة استيضاح دواخل الإنسان.

محاولة ارتقاء الوالدين على حالة القلق الدائمة أثناء تربية أولادهم سوف تثمر بصورة إيجابية على الأسرة جميعها، وكذلك محاولة نسيان الأحكام المسبقة أيضًا سيكون لها عظيم الأثر في أسلوب تعامل أولادنا معنا، فعند إعطاء حكم مسبق على الأبناء وتصديقه تمامًا وباقتناع، بل وجعله غير قابل للنقاش لأننا أولياء الأمور أكثر حكمة وأكثر علمًا من وجهة نظر أنفسنا؛ يجعلنا نتجه نحو تفسير كافة سلوكيات أبناءنا بما يتناسب مع حكمنا المسبق فقط، ونبررها على أنها تعزيز له، فلو رأى الوالد أن ابنه ناكر للجميل مثلاً؛ سيبرر كافة تصرفاته على أساس هذه الفكرة، ومن هنا فهو يجهضه حقه تمامًا، ولا يدرك أبدًا أن إطلاق تلك الأحكام المسبقة يجعل أولادنا في حالة من المقاومة النفسية، وينظرون إلينا على أننا اضطهاديين وديكتاتوريين، ويتعاملون معنا بمزيد من المقاومة والتصادم، مما يخلق هوة واسعة بين الطرفين.

وقد قال السلف: (لاعب ابنك سبعًا، وأدبه سبعًا، وآخه سبعاً، ثم ألق حبله على غاربه).

كما بيّن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم : (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

هل هنالك حكمة تربوية أرفع من تلك في احترام خصوصيات ومراحل النمو الإنساني؟!
تلك التي توضح لنا فطرة الأطفال ونقائهم، وأنهم قابلين للنقش والتوجيه، وكأنها بلغة العصر "هارد ديسك" نطبع نحن عليه ما نريد، فإما أن ندخل إليه بيانات صحيحة، أو ندخل إليه فيروسات تؤدي لتدميره فيما بعد.

في مرحلة ما تعلمت أن السلوك يصدر نتيجة للمشاعر، والمشاعر نتيجة للأفكار، والأفكار تنبع من مصدرين هما التربية والتعليم، أي اللبنة الأولى التي يغذي بها الآباء أولادهم. ولكي يعملوا على تغيير سلوك ما في أبناءهم بمواجهة هذا السلوك بشراسة لهو من الأخطاء الفادحة التي لا ينتبه لها الآباء، فلكي تغير سلوكا ما عليك أولا بالعمل على تغيير القناعات والاهتمامات التي مر بها الإنسان أثناء تربيته ولن تصل لذلك عن طريق دور

القاضي والموجه، ولكن عن طريق دور الصديق الــذي يتقصى الأسباب الفعلية والحاجات الرئيسية النابع عنها هذا السلوك.

ففي أغلب المواقف المشحونة داخل الأسرة تجد الجملة السائدة: "أرجوكم افهموني"، أو "لماذا لا تفهمــون مـــا أريده"، ألم يسمع كلٌّ منكم تلك الجملة مرارًا وتكــرارا، لماذا لا ننتبه لهذا الأمر مع أولادنا وندرك رغبتهم لا في أن ننظر للأمور بصورة سطحية فارضين عليهم منهجيتنا نحن في الحياة، ولكن أن نحاول العبور لداخل عقــولهم وقلوبهم، لندرك ما يحتاجونه فعليًا ونحاول التواءم مع تلك الأمور.علينا أن نكون كالمحيط الذي يحمـــيهم مـــن الخارج؛ وليس الذي يخنقهم.. من يراقب ويرشـــد دون ضغط أو ضغينة؛ لا من يقيد ويتحكم ويتهكم.

فالأبناء أفراد، و"كل فرد يعيش في عالم خاص به، وقد لا تمثل اهتماماتنا شيئًا لهم".. علينا إدراك تلك القاعـــدة ومحاولة معرفة ما هي الأشياء الهامة للفرد، لا ما نريد توصيله نحن إليه، وقد يقابله بنوع من الفتور.
إذا استطاع الوالدان أن يدركا تلك القاعدة سيتمكنا مـــن عبور نفسية أولادهما، وربما يتمكنا من توريد الأصول

التربوية الصحيحة لهما؛ ولكن عبر إطار جديد يتماشى مع أسلوب استقبالهم لتلك المعلومات.

قد أرى ابني لا يصلي وأريد إرشاده إلى الصلاة، فماذا عليّ أن أفعل؟!... هل أذهب لاجتذابه من يديه معنفًا إياه لماذا لا تصلى، وأسبه وأورد إليه من الألفاظ السيئة بما يجود به لساني؟! مما يخلق لديه نفورًا من الصلاة... أم أطلب منه أن يذهب ليتوضأ ويحسن وضوءه، وقد أذهب معه أعلمه وأرشده بألفة ومحبة مع ذكر أن الوضوء يجعله ممن تنطبع على أساريرهم الأنوار الربانية، ثم أخبره أنني أحب مثلاً أن يخرج معي للمسجد المجاور لنؤدي الصلاة، أو أن أكون إمامًا لهم في المنزل فتشع روح السكينة في قلوب الجميع؟ وبعد الصلاة أشجعه بقبلة، أو أذكر: يا الله ما محلى هيئتك وجمالك، وأجعله يشعر ببعض الكلمات اللطيفة أن الصلاة تجعله مضيء الوجه جميل المحيا، مما ينطبع داخل نفسية الطفل بصورة إيجابية.. ومع تكرار الأمر يصبح عادة، فسمة سلوكية تصحبه طوال حياته.. بدلاً من خلق نفور ذاتي منها، ونظل في دائرة فرض الفعل ومقاومته طوال الحياة فيمتد السلوك العنادي لأمور أخرى وشتى في الحياة الأسرية، ويصبح طابعًا لشخصية أطفالنا.

لو تحرينا الهدوء في ردود أفعالنا والتفكير مسبقًا في ردّ فعل مَن أمامنا قبل أن نفعل ما نريـد، واحترمنـا ذات الآخرين؛ مهما بدوا لنا جهلاء وصـغار السـن؛ وكنـا حياديين تمامًا نحو ما نريده نحن والطريقة التي نفكـر بها ونستقبل بها ردود أفعال الآخرين؛ لاستطعنا التغلب على الكثير من المشكلات الأسرية التي نعانيها الآن من تفكك وعناد ونفسيات طفولية مهدمة ومتفسخة وغيـر قابلة حتى للتأهيل، لأنه وباختصار الوسط المحيط نفسه يحتاج للتأهيل وليس نفسية أولادنا فقط.. فلكي نربـي الطفل؛ علينا أولاً تربية أنفسنا.

منذ فترة قريبة أسّر لي أحد الرجال قائلاً: "كنتُ أعتقـد أن تربية الأطفال سهلة، ولكنني اكتشفت أن تربية الإناث على الخصوص من أصعب ما يكـون، فالطفـل الـذكر يستجيب بسهولة وطواعية لما يطلب منه، بينما الأنثـى تجادل وترى الأمور دائمًا بصورة مغلوطـة، وتـرفض الانصياع لما يُطلب منها، وتتهمنا بالتحفظ الدائم علـى سلوكياتها، في حين أن الأمر الصادر من داخلنا أبسـط مما تتخيلين، وليس المقصود منه أبدًا محاصـرتها أو فرض رقابة على كل تصرفات حياتها".

وكان في حالة تعجب كبيرة من أن عمر طفلتـه التـي

يتحدث عنها لا يتخطى الحادية عشر عامًا، متسائلا عن التغير في النسق النفسي للأجيال، وكذلك أسلوب الفهـم والمخزون الحياتي لطفلة في مثل هذا العمر.
فأجبته بهدوء أن التغير في أصل التربية الذي يختزنـه هو ويورده لأطفاله.

ورأيتُ أنه من المناسب أن أورد هنا مقالاً في المعرفـة بقواعد التربية الإسلامية من أجل صالح الطفولة والتربية علـى العمـوم، وإن كـان خروجًـا عـن المضـمون السيكولوجي لحالة رضوى.. فقد قـرأتُ يومًـا مقـالاً للدكتور الشيخ يوسف القرضاوي يتحدث فيه عن التربية الصحيحة لأطفالنا، أحببتُ أن أورد بعضًا منه هنا لعلنـا يومًا نتعلم أصول الشرع في تربيـة الأولاد، ومراعـاة نفسياتهم، والعمل على المحافظة عليها ضـمن حـدود السواء والطمأنينة، فالعلم هنا ينسب لأولي العلم.

فبعض الناس يظنون أن علـيهم أن ينجبـوا أولادًا، ولا يسأل عن ولده ولا عن طفله، أين الأبوة الراعية؟! النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "كلكم راعٍ، وكلكم مسـؤول عن رعيته، الرجل في أهل بيته راعٍ وهو مسؤول عـن رعيته".. ليس مهمة الإنسان أن ينجب أطفالاً، وبعضهم

يقول: أنا آتيه بالطعام والشراب والكسوة وما يحتاج إليه.. وبعض الأمهات لا تهتم بأطفالها، وتترك أطفالها للخادمة؛ إن توفر؛ أو غيرها، أو حتى تهمل تربيتهم وتوفر لهم فقط الحاجات الضرورية من مأكل وملبس ونظافة.. ولكن تربية وتهذيب الأطفال، وتعريفهم بأصول دينهم، ومحاولة بث السلوكيات الطيبة بروحهم؛ هذا ما لا يتوفر هذه الأيام.

ليس هذا من الإسلام في شيء، أين الأبوة وأين الأمومة، أين الأبوة الراعية، أين الأمومة الحانية، أين المسؤولية؟.. هؤلاء أمانة في أعناقنا، هؤلاء مستقبلنا، إذا أردت أن تعرف كيف يكون المستقبل فاعرف كيف تكون تربية الأطفال منذ نعومة الأظفار، الطفل عجينة لينة، يتشكل بما يشكله المحيط من حوله، والبيئة من حوله، وخصوصًا الأبوين؛ كما جاء في الحديث : (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

الأب هو الذي بتأثيره يصنع سلوك الأولاد، قد يهملهم فيضيعون، وقد يعنى بهم فيصبحون أولادًا محترمين عند الناس؛ محبوبين عند الله.. مسؤولية كبيرة تربية الأطفال، أن نحسن تربية أطفالنا، ولذلك جاء في الحديث

(مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر). إذا بلغ الطفل سن السابعة أصبح قابلاً للتعليم، فعلّمه الصلاة، ورغبه في الصلاة، وحبب إليه الصلاة، حتى ينشأ على الطاعة، فالخير عادة والشر عادة، وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوَّده أبوه، عوِّد ابنك الخير وهو في هذه السن القابلة كما قال الشاعر:

وينفع الأدب الأطفال في صغر

وليس ينفع عند الشيبة الأدب

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت

ولن تلين إذا قومتها الخُشب

الغصن اللين الطري تعدله فيعتدل، تقومه فيستقيم يلين لك، ولكن بعد أن يصبح خشب لا ينفع فيه إلا الكسر، ناس يقولون: "بعد ما شاب ودوه الكُتَّاب"، معنى هذا أن سن الصغر، ولذلك قالوا إن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر. قيل لهذا الحكيم الذي قال هذا القول: إن الكبير أوفر عقلاً، قال: ولكنه أكثر شغلاً، الطفل قابل للتعليم.. وكما قال الإمام الشافعي: " ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته."

تعلم في الصغر، وعلم ابنك في الصغر، علمـــه الـــدين، علمه الأخلاق علمه الصدق، علمه بالأســـوة الحســـنة، التعليم ليس بكثرة الكلام، والتربيـــة ليســـت بإصـــدار الأوامر، التربية قدوة، أن يرى فيك الأسوة الحسنة.. قد تقول لابنك: لا تدخن، ولكنه يراك تدخن وتســـرف فـــي التدخين، فهو يريد أن يقلدك ولو من وراءك؛ ولو بدون أن تراه. القدوة هي المؤثر، لسان الحال أفصـــح مـــن لسان المقال، علّم أولادك، مُرهم بالخيرات رغبهم فيهـــا كافئهم على هذا، حاول أن تجعل من ابنك إنسانًا فاضلاً، هذه مسؤولية الأب والأم قبل غيرهم.

صحيح أنه في عصرنا لم يعد الأب ولا الأم وحدهما هما المؤثرين في الطفل، دخلت هناك أشياء كثيـــرة مـــؤثرة ولعلها أشد تـــأثيرًا؛ التلفزيـــون والإذاعـــة والصـــحافة والشارع، والتقاليد الصارمة كلها تؤثر، ولكن الأســـرة هي المحضن الأول، الأسرة هي المعلم الأول، فينبغي أن تهتم الأسرة، الأب والأم كما قال شاعر النيل:

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

ولابد أن يتعاون الجميع على حسن تربية الأطفال تربية سليمة "مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر".

أقول يمكن أن نحتفل بميلاد الأطفال في هذه المناسبات،

أي إذا بلغ الطفل سبع سنين نحتفل به، نعمل له حفلاً، ونقول له هذه حفل الصلاة؛ لقد كبرت الآن وأصبحت مسؤولاً، عليك أن تصلي، حفلاً نأتي له فيه بالهدايا بمناسبة أنه أصبح مأمورًا بالصلاة.. وإذا بلغ عشرًا نقيم له حفلاً آخر، ونضحك معه ونقول له: هذه حفل الضرب، إذا لم تصل سُتضرب. هذا شأن الإنسان المسلم، أعطيناه فرصة ثلاث سنوات ترغيبًا وترهيبًا، وترجيةً وتخويفًا، ثم بعد ذلك نشعره بالجدية، المقصود بالضرب الإشعار بالجدية، لأن الأب قد يقول له: صلِّ يا ولد، ولكنه لا يحاسبه هل صلى أو لم يصل، على حين لو أمره أمرًا من أمور الدنيا وخالفه فهو لا يسكت على هذا، فلابد أن يكون أمر الدين مثل أمر الدنيا إن لم يكن أكثر.

لابد أن نهتم بأولادنا في طفولتهم، ونعني بأمرهم، ليست مهمة الأب أن يوفر لأولاده الطعام والشراب والكسوة والسيارة والخادم والسائق، ثم يدع حبله على غاربه، لا يعرف عنه شيئًا، لا، الله تعالى يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ). هل وقيت أهلك النار، هل حميت أولادك من النار؟ لا يكفي أن تطعمه وتسقيه وتكسوه، ولكنك لا تأخذ بيده في الطريق إلى الجنة، لا تحاول أن تبعده عن طريق النار،

هذه مسؤولية كل أب وكل أم (قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) كما تحمي نفسك من النار؛ احم ولدك من النار، احمه بأن تعلمه الدين الصحيح، وأن تغرس في نفسه الفضائل القويمة، وأن تبعده عن الرذائل المهلكة... هذه هي مسؤولية الأب والأم.

ولقد عني الإسلام بالإنسان من حيث هو إنسان، وكان للجانب الإنساني مساحة هائلة في تعاليم هذا الدين وأحكامه وأدبياته، وأعظم من عني به الإسلام الضعفاء من الناس، والطفولة ضعف، والعوق ضعف، الله تعالى يقول (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)، فالطفولة ضعف والشيخوخة ضعف، والشباب مرحلة القوة بين ضعفين، عني الإسلام بالطفل؛ بل عني الإسلام بالجنين في بطن أمه قبل أن يولد طفلاً، لم يجز للأم أن تجهض نفسها بغير ضرورة، لم يجز إقامة الحد على المرأة الحبلى القاتلة أو المرأة الحبلى الزانية إذا ثبت زناها.. جاءت المرأة الغامدية إلى النبي صلى الله عليه وسلم تقر على نفسها بأنها زنت وأنها حُبلى من الزنا، فلم يقم عليها النبي صلى الله عليه وسلم الحد، وقال لها: اذهبي حتى تلدي.. وذهبت المرأة أشهرًا حتى وضعت طفلها وجاءت

به على يديها تريد أن تُرجم وأن تتطهر من الفاحشة التي ارتكبتها.. فقال لها: اذهبي حتى تفطميه..

معنى هذا أن للجنين حقًا؛ وإن جاء عن طريق حرام، حقًا في الحياة بمجرد علوق الحمل يصبح هناك مشروع إنسان لا ينبغي أن يُعتدى عليه، وإذا كان للشرع سبيل على الجانية فليس له سبيل على ما في بطنها (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

شرع الإسلام للمرأة الحامل أن تفطر إذا خافت على حملها، بل يجب عليها ذلك إذا تأكدت أن الحمل أو الجنين سيتضرر بالصيام، فإذا ولدت فللطفل حقوق، هذا الطفل له حقوق وتتعلق به أحكام، جمعها العلامة ابن القيم في كتابه سماه "تحفة المودود في أحكام المولود": تؤذن في أذنه اليمنى، تحسن تسميته، تذبح عنه أو تعق عنه في اليوم السابع لميلاده، على الأم أن ترضعه وإن كانت مطلقة، وفي هذا نزل قول الله تعالى في سورة البقرة (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ) أي الوالدات المطلقات لا ينبغي أن تكايد المطلقة زوجها المطلّق، بإهمال رضيعها (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ

تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ).. ما فصلت فيه الآية الكريمة في شأن إرضاع هذا الطفل الصغير حتى لا يضيع بين زوجين مختلفين، هذه رحمة من الله تبارك وتعالى بهذا المخلوق الصغير.

إن له حقوقًا على أبويه، ينبغي أن يرعياها، ينبغي أن ينفق الوالد على هذا الطفل، وينبغي أن يرعاه منذ صغره، يداعبه ويلاعبه، كما قال بعض السلف، لاعب ابنك سبعاً وأدبه سبعاً، وآخه سبعاً ثم ألق حبله على غاربه.. السنوات السبع الأولى تغلب فيها المداعبة والملاعبة، الله سبحانه وتعالى أعطى الطفل طاقة، فيما يصرِّف هذه الطاقة؟ في اللعب، يتحرك هنا وهناك، ينبغي أن نساعده على أن يلعب وأن نلعب معه، الأب الكبير ينبغي أن ينزل إلى عقلية الطفل الصغير ليلعب معه ويداعبه، هكذا كان سيد الخلق وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، كان يداعب الحسن والحسين وأبناء الصحابة رضوان الله عليهم، ركبه الحسن أو الحسين مرة وهو يصلي وهو ساجد بين يدي ربه فأطال السجود وأطال حتى ظن الصحابة الظنون، أأغمي على رسول الله؟ أتوفي؟ أجاءه الأجل؟ أطال.. ثم قام من سجدته وأكمل الصلاة وسلم فسألوه: يا رسول الله أطلت بنا

السجود حتى ظننا ما ظننا، فقال لهم: "إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله"، ابني أي حفيدي ارتحلني أي جعلني راحلة أو ركوبة فلم أشأ أن أقطع عليه لذة الركوب.

كان يمكن أن يعمل حركة توقعه من فوق ظهره، لم يشأ أن يؤذي الطفل، ولم يشأ أن يقطع عليه لذته، وتركه يستمتع بهذا الأمر حتى شبع وملّ، ونزل الطفل، هكذا كان عليه الصلاة والسلام.. ودخل عليه بعض الصحابة والحسن والحسين يركبانه، فقال الصحابي الذي دخل بيت الرسول لهما: نعم المركب ركبتما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ونعم الفارسان هما".

انظروا.. هذه هي الفطرة السليمة؛ هي التربية السوية، أن تلاعب الطفل وتداعبه.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم بيت أم سليم بنت أبي طلحة الأنصاري، فكان لهما طفل صغير، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا عمير، ما فعل النغير؟" النغير هو طائر كالعصفور، كان عنده وكان يلعب به ثم مات الطائر، فالنبي عليه الصلاة والسلام يداعب الطفل وجعل له هذه الكنية فقد كناه والكنية تكون للكبار، قال له: "يا أبا عمير ما فعل النغير" ماذا فعل طائرك، فهذه هي التربية النبوية.

دخل الأقرع بن حابس التميمي، وهو زعيم قبيلته، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم يقبِّل الحسن أو الحسين، فقال: يا رسول الله إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت أحداً منهم قط، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من لا يَرحم لا يُرحم".. إذا كنت لا ترحم طفلك فإن رحمة الله لا تستحقها، إن الراحمين يرحمهم الرحمن.

وروت عائشة أن أحد الأعراب دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: إنكم تقبِّلون الأطفال وما نقبِّلهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك" ماذا أصنع لك وماذا أملك لك عند الله إذا كانت الرحمة قد نُزعت من قلبك حتى على أولادك، فلذة كبدك، أطفالك من صلبك لا ترحمهم، ماذا أملك لك "أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك" هكذا تكون التربية والعناية بالطفولة.

فأين نحن من تلك الأسس التربوية القائمة على مراعاة النمو النفسي للأبناء وحسن معاملتهم؟

هل تعتقدون مثلي أنه بالأحرى علينا بتربية أنفسنا أولاً لنحظى بجيل يسعد الله به، ومن ثم نسعد نحن والمجتمع والناس أجمعين ؟!



- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها.
- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 - (+2) 0188890065


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net